لـــونـــجـا

قصص

أحمد الملا

الإهداء

إلى ليلى.. وطني، وأمّي

مدخل

في مكان غير شهير، يضمُّ مربع صغير وغرفة تكفي لنوم شخص واحد.. كُتبت هذه القصص، وغيرها، بين ترنح الرؤوس واضطراب الرؤية والخيال، وقُصّت، على دفعات، من قبل المرتادين المتشكلين من تضاريس مختلفة، وهواء مختلف، والمتأثرين بعزف صاحب المكان، البديع، الماهر في ضرب الأوتار بريشة نسر مقتديًّا -كما يقول دائمًا- بزرياب.

لا يشترك القاصّون بأي شيءٍ، وقصصهم، تشترك في تدفقها كل ليلة بعد أن ينهي صاحبُ المكان معزوفته الخاصة، التي تعلو، ويعلون معها بحماسةٍ وانصياع، وشهوةٍ للجدل، قبل أن يخرجوا من المكانِ في ساعةٍ مبهمةٍ كوجوههم، كدروبهم، كاعتقادي بأن مرتاد هذا المكان ينسى ما يقصّه كل ليلة.

تاريخ الهزهزة

هزَّ السلطان ردفهُ حال اضطجاعه على العرش، استعدادًا لليوم الجديد، الذي لا يجب أن يكون إلّا نسخة عن بقيةِ الأيام، منذ هزهزة الردفِ الصباحية وحتى هزهزةِ المساء، وقد شعَر أنْ لا شيء يدعو للريبة، الوجوه عفراء، والهواء لا يجرؤ على الصفير، والمجلس تطغى عليه رائحةُ الحريمِ والعسلِ، لكّنه على رغم ذلك استدعى وزيرَ الأحوال، الذي يُعدُّ اليدَ اليمنى لسموّه، وأحدَ أكثرِ الرجالات طاعةً وولاءً، اسمه "معلوف".

دلف الوزير بوابة المجلس المزينة بألويةِ حروبٍ لم تُخض، يحمل بين طيّات وجهه علامات استياءٍ نادرة قرأها السلطان من دون عناء، سأله متوجّسًا:

– ما الأحوال يا معلوف؟

جاء الردُّ بصوتٍ قلق:

– طيرٌ في السماء يا مولاي.

– طيورنا كثيرة، ما الجديد في ذلك؟

ازداد وضوحُ القلق في صوت "معلوف"، وأجاب بنفس الرمزية الحيوانية التي يتم اللجوء إليها على الدوام عند ذكر الرعيّة:

- طيرٌ حرٌ!

انتفضَ السلطان واقفًا بجسد ثقيل، ومدَّ يدًا مترهلةً مبسوطةً، ثم صرخ بلهجةٍ آمرة قبل أن يضمّها كقبضة مهيّئة لِلّلكم:

- فلنصطاده!

ضاقت عينا "معلوف" كما ضاق فمه معبرًا عن ابتسامة خُبث، واستحبَّ الأمر فصارت هيئته كحرباء تنضبة، ثم غادر بنشاط صياد لم يرَ فريسة منذ دهر، وكان قد جمّع حاجته من الجند والعسس خارجًا للقبض على الفريسة، والمستعدون أبدًا للاصطياد، كغريزة الكلاب.

وبعد فترة من توتر قضَّ مضجع السلطان وفجّر من الأغوار طبائع الجُبن والخرع، استحالت صراخ وخمش وتكسير، أقبل الوزير بملامح وجهٍ مبشّرة، وضرب بقدمه البلاط ضربةً عسكرية مرهبة يعتادُها السلاطين، ثم أزاح عن ثلاثة رجال، يبتعدون عن العرش بمقدار عشر سجدات، الشاب في الوسط، وعلى طرفيه عاسّان مقطوعا اللسان.

أظهر معلوف حماسًا بالغًا، في أثناء ما كان يقول:

– هذا الخطر الذي سيعكر صفو سلطانك، ويعبث في استقراره يا مولاي، نحن رهن إشارتك.

كانت حال السلطان ستهدأ تمامًا، لولا ارتعاش خفيف في اليد، يُدارى عادةً بالتطويح والتهديد، أو الضرب على مسندِ العرشِ بإيقاعٍ مجارٍ للكلام، ولا يستوي هذا مع هيئةِ الطير الحر، شابٌ بهي الطلعة والفتوة، في عينيه ثقةٌ طاغيةٌ واعتداد، وفي قوامه استقامةٌ وبسالةٌ تخلوان من أي توتر، كان متزنًا شامخًا يطوف في الإباء.

قال السلطان باستخفاف بعد أن رفع أنفه تجهّزًا للمواجهة:

– سمعنا أنك تطير في سمائنا.

– لم أجد سماءً لا تملكونها.

– ما المُبتغى؟

– أن أكون حرًا.

– كيف؟

– التحليق بأجنحةٍ من إرادة في مُلك العزيز.

– وحدك! ستضيع!

– لن يضيع ذو العقلِ والهمّة.

– وإذا أمرنا بغيرِ ذلك؟

– سمعًا وطاعةً لكلِ ما تأمرونه، إلّا هذا.

– والمعنى؟

– سأتابعُ التقدم نحو الغاية الأولى، وهي البحث عن الحقيقة والحق، في الكتب والطبيعة، وفي العقول والألسن.

– ألا تخاف من العقاب؟

– كلّا.

– ومنّي؟

– كلّا كلّا.

ارتعدَ بدنُ الوزير "معلوف" واصطكّت أسنانَه غضبًا لوقاحةِ هذا الطامح، ونظر إلى عينيِّ السلطان يطلب إليه الإذن بالتصرّف، أخذه، ثم غادر وخلفه العاسّان يزمجران حول الشاب بشراهة. لكن، وعلى رغم الثقة الكبيرة بالسيطرة المطلقة لدى السلطان، إلّا أنّه في كل مرةٍ يشذّ أحدٌ من رعيته يصاب بنفس الرعشة، قبل أن يطمئن، فعلى مرِّ كل تلك السنين الممتدة من آبائه الأولين إليه، لم يخب الظنُّ في مهارات القيادة العتيدة التي تورّثُ بالدم.

وفي زمنٍ قريبٍ، وكشيءٍ مفاجيءٍ جدًا..

صاحت أبواقُ الاستنفار في نواحِ القصر، إعلانًا بأن حدثًا جليلًا قد حصل، تراكض الوزراء والمستشارون المقربون من بلاط السلطان على أحذية من فزع، ليعطوا أوامرهم للحاشية السفلى، وكان الأمر الوحيد هو الإتيان بأمهر الأطباء في البلاد. لقد حدث ما لا يجب أن يحدث، المقام السامي، والقائد الأعظم، صاحب الخلق الممدوح، والجوخ الممسوح، لقد أصابه -ويا للعجب- المرض!

وقدِم رجال الطب والحكماء، من كل الجوانب والأرجاء، وتم فحص السلطان بكتمانٍ تام، والكل أكدَّ إصابته بشللٍ غريبٍ يمنع كل ما تحت ذقنه من الحركة. انفرد الوزير معلوف بهم وطفق يأمر بإيجاد العلاج للسلطان بأسرع وقت، لكن أحدًا لم يستجب، وظلّت رؤوسهم الكبيرة مطأطئة على رغم خبرتها الطويلة، إلّا واحدًا وقد كان أشيبهم، أعطى الوزير إشارة مفيدة، وقال إنه يملك كتابًا قديمًا قيل إن فيه علاج لكل ما يصيب الإنسان، والسلطان أصله إنسان، لكنه مدوّن بلغة غريبة لم يستطع فهمها لهذا بقيت الوصفات حبيسة ثنايا الصحف، فجُعلت الأوامر عندئذٍ تقصد التراجمة، وهؤلاء بدورهم أبدوا فشلهم واستغربوا تلك اللغة. بينما السلطان المشلول مازال على العرش منتظرًا أن يتم علاجه، وفكّه من الأربطة الملفوفة حول أعضائه.

وطار الخبر في الأنحاء، وتناقله الولاة والأمراء، حتى قيل بصوت عالٍ أنه لا يوجد أحد غيره يملك الحل، اسمه "وحيد"، ولكل امرئٍ من اسمِه نصيب، فتمَّ على جناح السرعة التقصّي والتحرّي، ولم يكن بينهم فارقٌ أو بُعد، "وحيد" هو المحبوس في أقبية السلطان بتهمة الطيران الحر.

وجيء به في الحال بعد نبشه من المطامير، وعُرض عليه الكتاب، فتملكته نوازع الإنسان، من عطفٍ وإحسان، وأعطاهم جوابًا بالإيجاب، فهو على

اختلاطٍ كبيرٍ بألسنةِ التجّارِ العابرين للبلاد، وهم من كل الأجناس، ولذكائه كان يتعلم كل ما يرطنون به، قراءةً وكتابة، فأمره الوزير معلوف –وقد أسرّه هذا الخبر– بترجمة كامل الكتاب، وتدوينه للاحتفاظ به في القصر ليكون خاصًا بالسلاطين، وبعدما تمّ كل ذلك أُخذت منه الوصفة المرادة وأُسقي منها السلطان بخواشيق موثوقة، ولم يمر كثير من الوقت حتى فُكّت الأربطة، وفُتحت الستائر، وتحرر اللحم الطري.

فرح السلطانُ بالشفاء أيَّما فرح، وطلب مقابلة ذلك الشاب الحاذق، الذي لم يدرِ به بعد، للمكافأة والجزاء، وسيق "وحيد" من زنزانته ولا تزال فيه بعض الصحة للمثول أمام السلطان المعافى، فخرجت عن الأخير دهشةٌ قصيرةٌ وقتما عرف شخصيةَ الشاب.

قال "وحيد" بعد تهنئة السلطان وفيه ظنٌّ بأن الخلوص من الغمِّ قد دنا:

– الآن يا مولاي يمكنكم تحريك كامل أطرافكم كما شئتم.

ضحك السلطانُ ضحكةً استغربها "وحيد"، ثم نطق بانتفاخ:

– من قال لك إني بحاجة لتحريكها؟

– هذا فعلٌ طبعيٌّ يا مولاي، لا يحتاج إلى قول.

– إن كنت تقصد المشي، فأنا لا أُفارق عرشي هذا مهما يكن السبب، وإن كنت تقصد الأكل والشرب، فأيادي الحاشية كلها تحت أمري، أما مسألة الحريم فبالخبرة الخاصة بالسلاطين تُحل، لا شيء يحتاج إلى الحركة.

تأرجح رأس الوزير معلوف مؤكدًا، وتوجّه إلى "وحيد":

– أنت شابٌ صغيرٌ معدوم الخبرة ولا تفهم في حركات السلطان.

– أفهموني.

ولإفهامه قال السلطان:

– هذا ما نفعله فقط.

ولم يرَ وحيد أن شيئًا في السلطان قد تحرّك، على حين لاحظ بطرف عينه أن الردف المعظّم كانت تصدر منه هزهزة.

ثم استعاد الوزير قساوة المجلس وسأل بنفادِ صبرٍ:

– أوامركم يا مولاي.

سُئل "وحيد" عمّا إذا كانت أقواله ستتغير لو أُعيد طرح الأسئلة، فنفى ذلك وأصرَّ على موقفه أشد إصرار، وفي لحظتها، أنهى السلطان الكلام بعبارة انتهاء حاسمة خرجت كهديرٍ من كهف:

- هو عالجني بما يحتويه كتاب الطب، ونحن سنعالجه بما يحتويه كتاب الحُكم!

وانصرف الجميع.

وفي طلعة صبح اليوم التالي، هبَّ السلطان من نومه مستدعيًا وزيره المطواع "معلوف"، فأتاه بعجلة منذر، وسُئل عن حال الطير، ليجيب بابتسامة تنمُّ عن نجاح باهر، ثم طلب الإذن وفارق قليل من الزمن وآب، وضرب بقدمه البلاط، وأزاح عن رجلين معلقة بينهما زربيّةٌ بالية، مضمومٌ بداخلها بشر، فأُفلتت الأطراف وظهر منها "وحيد" ساجدُ المنخر وبحال لا يُغبط عليها، القوام القديم قد تقوّس وبريق العينين توارى في غسقٍ أسودَ مدمّى، وكل ما يدعو للقلق قد تمتْ بشكلٍ قاطعٍ معالجته، فشرع السلطان يخاطبه بطنزٍ تغذّيه نظرات الوزير الشامتة:

- هل من المفيد إعادة الأسئلة؟

أمال "وحيد" -بعد أن جثا على ركبتيه بمشقّة- رأسه معبّرًا عن قبول شديد، فملأ السلطان الفم بحسوةٍ من الكأسِ الكبيرة، المذاب فيها بعض العنب والأعداء، ثم أخذ يسأل:

- سمعنا أنك تطير في سمائنا؟

أجاب الشاب بلسانٍ ثقيلٍ فقد معظم مهاراته، بعد أن كان أبلغ من أي خطيب، وبصوت مخنوق بالكاد يصل إلى أذنيِّ السلطان، المتخفيتين تحت عمامة محشوة بالجواهر:

- ستسمعون جلالتكم أني لن أطير أبدًا.

- ما المُبتغى؟

- أن أكون تحت أقدامكم.

- كيف؟

- ما تأمرون به يُنفّذ.

قهقه السلطان وعيناه نحو الوزير المتفاخر بنتائج ما تولّى، ثم تابع:

- وحدك! ستضيع!

– جربني يا مولاي وسأبرهن أن ولائي لكم قد وصل إلى أعظم الدرجات، وأظنُّ أني قد جُرّبت، كان بالإمكان أن أغيّر مكونات العلاج وأجعله يفعل بكم ما أشاء، لكن حبّي لكم –وإن لم يكن ظاهرًا في البداية– حال بيني وبين فعل السوء هذا.

– حسنٌ لنتابع، وإذا أمرناك بغير ذلك؟

وقهقه بشدّةٍ أكبر.

– مملوكٌ أنا لكم، بالعقل والقرار، والجسد على تأهبٍ للفداء بأي شيء حتى لو أخذتم منه الروح.

– والمعنى؟

تعرّج موضعُ حاجبيِّ السلطان، ففهم الوزيرُ الإيماءةَ واستجاب، ورفع السوط الذي لا يفارقه حتى جرح الفضاء بصرخة، وهوى به على ظهر الشاب صائحًا بلؤم:

– ابتسم ابتسم فلا بدّ للرعيّة أن تكون مبتسمة.

فأجاب "وحيد" وابتسامة الذل تقسم وجهه نصفين، وضربات السوط تقسّم جسمه أنصاف:

– عفوك يا مولاي عفوك، حينها كنتُ أهذي من دون إدراك، ربّما قد مسّني الجن، أو غامت عيناي لزهوٍ جعلني أزيغُ عن الصواب.

– ألا تخاف من العقاب؟

– أخاف.

– ومنّي؟

– أخافُ أخاف.

ثم غاب عن الوعي وانسطح ككومةٍ من مزقٍ فوق الزربيّة المخضّلة باللعاب، الذي كان في يومٍ ما سيتحول إلى هتاف، وأمر السلطانُ أن يُلملم ويُجعل في توٍّ يقظته مراقبًا للطيور، أي كلبًا.

اقترب الوزير "معلوف" ويداه تفركان المكر بداخلهما، وقال ما يجب أن يقال من ديباجات الثناء والتبجيل، ثم أضاف:

– الآن قد أصبح عبدًا مطيعًا يا مولاي، ولن يؤذي صفاءَ سمائِنا المزدانة بالخضوعِ، وسنأمره بترجمةِ جميعِ الكتبِ الغريبة في البلاد.

وأطلق السلطان ضحكة عظيمة لزجة، استمرت طويلًا، كما استمرت عمامته بالتطاول، واستمر ردفه -أصولًا- بالتضخم.

إلى أن جاء يوم وأصيب أفرادُ البلاط بمرضٍ خطير، قادمٍ مع قوافل المليحات، وكذلك السلطان، الذي عجَّ مجلسه بشغب السقماء، ولا عجب في ذلك، فلاذوا للكتب التي ترجمها "وحيد"، وحرثوها حرثًا دقيقًا حتى وجدوا ضالتهم، ثم تجرّعوا العلاج كلهم دفعة واحدة، فامتلأت على أثر ذلك السماء بالطيور، وفاحت رائحة العشب النديِّ من الزوايا، وتدفقت الأخبار في الحاراتِ المتّكئة على ضفاف الصبر، أخبارٌ تقول إنَّ أفراد البلاط، بما فيهم السلطان، احترقت أجوافهم جميعًا، في مشهدٍ عجائبي، وذابوا في مجالسهم الوثيرة.. كشموعٍ رخوة.

وأيضًا مما قالته الأخبار، إن الردف المعظّم بقي لابدًا فوق العرش، يهزُّ إعلانًا عن انتهاء هذا العصر، وتهيّؤًا لاستقبال السلطان الجديد.

قيامة وثن

لا يكونُ من المحتملِ حدوثِ أي أمرٍ مهم، لولا أن يحتشد الناس حول تمثالِ البطلِ مديدِ القامةِ، الشاهقِ فوق حصانِه العملاقِ، في ساحةٍ رحبةٍ لا يسبقُ لها أن تشهدَ مثل هذا التجمعِ الغفيرِ من قبل، وتتصاعد منهم الهتافات المباركة بالانتصارات القديمة على الأعداء، بعضٌ منهم يبلغ فيه الوجدُ مبلغ السجودِ، وبعضٌ آخر يكتفي بالبكاء خَشِنِ النبرة ودفِّ الصدر. ليس احتشادهم اليوم إلّا لتأكيد ولاؤهم الأبدي للبطل، وإغاظةً للذين يشككون فيه من الضاغنين والأغبياء، بعد مطالبتهم بهجر كل التماثيل تقليدًا للهجر القديم.. في بدايته، يشتعل هذا الصراع حينما يمزقُ أحدُ الأطفال ورقة من كتاب مدرسي يقع تحت يديه، ويصنع منها طائرة ورقية تحوم في فضاء غرفته بأمان قبل أن تتفلت وتخرج من النافذة، لتنصب على أثر ذلك الشتائم والاتهامات على والده، كيف يسمح لنفسه أن يُنجب طفلًا يصنع من ورقة تتصدرها صورة البطل طائرة تدنسها دعسات المارة؟ ويناصر بعض الجيران من أصحاب الرضا جارهم المشتوم، ويتصدون للشاتمين، وتلتهب الحال حتى تخرج من نطاق الحارة الصغيرة وينتشر الانفعال في الشوارع والساحات، لكن الرد على الطفلِ يكونُ أعنفَ

من المتوقع، ليس من الجماهير الحانِقة فحسب، بل من الباعثِ الأول لكل ما يحدث، حيث تكتمل غرائبُ هذا اليوم الأغرّ بأنه على حين غفلة تتغير حرارة الهواء، وترتجف الأرضُ تحت الأقدام، ارتجافًا مستمرًا متصاعدًا مريبًا، فتُمضغ الأدعية في أفواهٍ أعياها الدعاء، وتدب الحياة في شرايين الحجر حتى يغدو الحصان لينًا كاللحم، ويُنزلُ قدميه المرفوعتين عاليًا منذُ زمنٍ طويل لتتغطى لأولِ مرةٍ دلائلُ فحولته التي برع النحاتُ في نحتها، تسكن الجماهير، والعصافير، وهم يشاهدون بعدها البطل المتحجر هنا منذ مئات السنين يتلفت يمينًا ويسارًا موزعًا عليهم نظراتِ قائدٍ صنديد يشرعُ في اقتحام حصن، ثم يرفعُ يده ويلقي عليهم تحيةً عسكرية بيدٍ مشدودةِ الأعصاب، فيتماوجون حوله بذهول، وتُثنى الجذوع والرقاب، وتخضلُ اللحى والشوارب، وتهدر الزغاريد في الحلوق، وفي الأحشاء، فينهز البطلُ حصانَه ويمشي هذا متبخترًا بين الناس وصهيلُه يملأ الأرجاء، والنساء من الشرفات يرمين عليهما الرز والزهور والأماني، والهتافات تتعالى على بعضها كلٌ منها يزيد من التمجيد، فتغمرُ البطلَ نشوةٌ شديدةٌ يشتاقُ لها أيَّما اشتياق، ويصير الحصان يعدو ويثب في الشارع الذي يحملُ اسمَ فارسه الشجاع، هذا المشهد يكون السبب في إغماء كثير ممن لا يتحملون مثل هذا الفرح المباغت العجيب، رغم أنهم لا يؤمنون في داخلهم أن زمن المعجزات انتهى، وأنه لابد له أن يقوم، ويعلو الجدال، وتزداد

الخصومة، ويسفرُ ارتجافُ الأرضِ عن صدعٍ عميق، يُسمع من أحد طرفيه قولٌ شامتٌ موجهٌ نحو خصمٍ أعمى يقفُ على الطرفِ المقابل:

– لشدّ ما يحزنني أنك لا تراه.

يرد الخصم باعتداد:

– يلذُّ لي العمى على أن أراه، طوبى لعينيَّ الشريفتين، طوبى لعينيَّ الشريفتين.

في هذا الخضم، وفي غمرةِ الوثباتِ العاليات التي يتباهى فيها البطل أمام الجموع، ابتهاجًا بالقيامةِ المبكرة، تعلقُ خوذتُه جليلةُ المقام في أسلاكِ كهرباء منخفضة تعترض الشارع، وتسقط، وتتدحرج بين جثثٍ حية تتنفس الخوف والبكاء من فرط الحنين، ويُثار غضبُ البطل فيصفعَ مؤخرةَ حصانِه بقوةٍ آمرًا إياه بالعودة إلى ذلك الغادر في الحال، وينتضي سيفًا قاصلًا من غمدٍ مطرزٍ بالتمائم، ويهوي به على الأسلاك ليبترها كما بترَ في زمانه رؤوس الشياطين، وحينما يلامسُ السيفُ أسلاكَ الكهرباء، تنطفئُ المصابيح في المنازل، وفي الوجوه، وينتقل تيارٌ عالي التوتر إلى سيفٍ حديدي النصل، ثم إلى جسد تتفرغ فيه كهرباء لا تعرفُ بعدُ قيمةَ الأبطالِ، فيسقطُ الشاهق على حصانه العملاق

بين العابدين سقطته الثانية، صريعًا، نادمًا على قيامته في هذا الزمن القبيح، المليء بالشعوذة، والأطفال الذين لا يتوقفون عن تمزيق الورق من الكتب المدرسية التي تقع تحت أيديهم، ولا يتوقفون كذلك، عن صناعة الطائرات، ورميها من النوافذ.

– طوبى لعينيَّ الشريفتين، طوبى...

جدل على هامش اللونجا

«انتصارات»

- كم عدد الحروب التي انتصرنا بها.

يخرج الرجل الثاني من تحت ملابسه قطعة جلد كبيرة، يمرر عليها نظره ويجيب باعتداد:

-انتصرنا في كل الحروب التي خضناها.

- دعنا ننظر للوجه الآخر من قطعة الجلد.

ينظران، وتضمر العضلات المنفوخة، وترتخي الأعصاب، وينتهي الحال بقطعة الجلد أن تم فصل وجهيها عن بعضهما، أحد الوجوه يبقى على الطاولة، والآخر يوضع تحت عجيزة تجلس عليه فتشعر بالدفء وتستريح.

تركواز

صباحٌ رائقٌ يتوافقُ أن تطوف في فلكه حديقة فاقعة البهاء، تمرُّ فيها وجوه منتشية بهواء رطب حينما يعبر الصدور بخفة يترك خلفه عطرًا طيّبًا فوّاح، وأشجارَ سامقةً متوزعة في جوانبها، فرحة بخيوط ماءٍ تنسلُّ في تراب أحمر بعد مطر ليلي غزير، ومصورٌ، فتيٌّ، تغريه رهافة الأجواء، ويأتي آملًا أن يشهد صحوة برعم أو اكتشاف لونٍ مفاجئ يغذي غصنًا باهتًا حزين، وتلمح عين فنان فراشة تركوازية تتقلب في الخلاء بغنج، تتحرض الحواس، جميعها، للحظة مميزة لا يجب أن تُهدر، يدير قبعة رأسه للخلف ويهيأ كاميرته بشغف يجتاح جوانح عميقة، وتكون الوجوه المنتشية في المكان، والأشجار، ويلتقط صورة سريعة بإصبع متمرسة رشيقة الضغط على الزر، وينتقل إلى شاشة الكاميرا بذات الرشاقة ليرى مدى نجاح الصورة، لا يجدُ الفراشة، ولا أي فراشة غيرها، ولا تلحق الخيبة أن تستولي عليه وتلبسه ثوبها الكالح، إذ إن فتاة تكون قد مرت في لحظة الضغط على الزر بينه وبين الفراشة، وتكون امتداد منصف للحديقة، في الصورة يظهر جانب من وجهها، صريح العذوبة كبحيرة في كهف يتنقّى ماؤها عبر سنين من مصافحة الصخور، ويظهر شعرها تدفقات شقرٌ

واثقة الجريان والتلوّي، تهبط على كتف لينة بضّة تنبت من فستان أبيض. يتلفّت ليراها ما تزال تمشي الهوينا قريبة، يلحقها ويناديها بتهذيب شمس تقبّل الدنيا بشفاه ناعمة:

- أيُمكن أن تقفي لثانية؟

تهتز أوراق خضراء خاضعة لنسمةٍ رقيقةٍ، وتنبجس فقاعات من عبير، وتداعب العصافير بعضها بأصوات رفيعة واخزة، وتخرج أنشودة عفوية:

- يُمكن!

يعرض عليها الصورة البديعة المتشكلة من غير قصد، وهو يشرح حالها متأسفًا، ومبتسمًا لتذكره السؤال الذي يجعله يمضي في تصوير كل ما هو جميل، وتتلوح يد الفتاة بغتة مشيرة إلى شيء تتفاجأ من قربه، تصيح بحماسة:

- الفراشة!

ويقبض بيدين متأهبتين على الكاميرا، ويجري مصوبًا نحو الفراشة عدسة تتماوج بغبطة، والفتاة في مكانها تصفق مسرورة بما ترى، حتى يشير إليها بحركات سريعة من يده متمنيًا أن تلحقه، وتلحقه من دون أن تخيّب اندفاعًا بريئًا. تطير الفراشة وهي تجر خلفها روحين تواقتين لجمال نادر، وتتجوّل في

الجو فتغمر الحديقة بهجة جمّة، وتنثر أجنحتها غبار ذهبي ناعم يلمع في أعينهما حتى يشعَّ المكان، ويأخذ في التحول إلى فراغ صامت هادئ، تسبح فيه أحلام قديمة تنفجر حولهما كقنابل من ضوء، لا يتمكنا سوى أن يتعلقا في نقطة نور بعيدة تربطهما بوعي مضطرب، النقطة تتسع لتغطي الفراغ ببطء، حتى يختفي الشعاع، ويجدان نفسيهما في بستان ورد تركوازي لا تحده حدود، والفتاة ذاهلةً تسأل:

- أين نحن؟

المصوّر يحيط بناظره المكان ولا يجيب، كأنه لا يسمع شيئًا غير أنفاس الأرض التي تصنع موسيقى تُبقِظ رغبة في الرقص، ويتذكران حينها نفس السؤال. يجيبان معًا:

- خُلقنا لنعيش هنا.

وتقفز الفتاة وتميل، والمصور لا يتغافل عن انتهاب لحظة مميزة لا يجب أن تُهدر، ويلتقط لها صور بوضعيات تنمُّ عن جسد لين، وهي تجاريه وتغير من حركاتها لتزداد إغراءً وحرارة، ثم يضمَّ يدها بيده ويركضان في البستان الواسع كامل الجمال، والنهار يأتي إليهما من كل اتجاه، ويتمددان على سجادة من أوراقٍ

نضرةٍ تحيطها سيقانُ ورد، يرفع رأسه مقابل رأسها، يتيه بمرآتين ساحرتين تعكسان تركواز البستان. يقول:

- عيناكِ جميلتان.

تأخذُ قبعته وتواري بها خجلًا يعتري وجهًا صبوحا. ثم يقول:

- اكتشفتُ شيئًا، أنا أحب التركواز.

تقول:

- وأنا أيضًا.

وتزيحُ رأسها صوب السماء، تكون السماء بحرًا من غير أمواج، تقفز فيه طيور داكنة وتخرج بلورًا مغتسلًا بطهارة خالصة. تبتسم وهي تسأله بنبرة ناعسة:

- أين نحن؟

ويهب واقفًا ويده متعلقة بها، ويندفعان نحو أُرجوحة فيها مقعدين متعاكسين، ويتأرجحان على إيقاع نبضٍ لذيذ، ويداعبان بأقدامهما رغبةً طافقةً مجنونة. يصيح بصوت مرتفع:

– اكتشفتُ شيئًا آخر، أنا أُحبكِ.

وتردُّ عليه بضحكةٍ طيبةٍ وديعة تشبه ضحكةَ طفلٍ صغير، ويظهر على إثرها قوسُ قزح ملوّن يحيط بالأرض، يصل إليهما فينزلقان عليه بتهور لم يألفاه في نفسيهما من قبل، حتى يأخذهما إلى كوخ صغير من ورد، فيه وسادتين محشوتين بأحلامٍ بيضاء تخلو من الظل، يهبطان فوقها، ويزيحُ بعضَ الورد ليصنع نافذةً مدورة في جدار الكوخ، فينجذبان إلى النافذة معًا. في المدى أكواخٌ كثيرةٌ ذات نوافذٍ تؤطرُ شفاهٍ تتقارب، ويبتسمان. تقول:

– وأنا أيضًا.

وتصرخ شرايين كثيرة تطلب دمًا ساخنًا جديد، ويدنو من شفتين شهيتين تستران ياقوتًا أرجوانيّ، ويهجم من البعيد ظلٌّ مخيف مجهول المصدر قبل أن يكسّر حجرًا واحدًا في منجم الياقوت، لا ظلَّ بلا مصدر، لكنّه دخان كثيف يفور غاضبًا في ريحٍ قوية تقتلع الكوخ، والأكواخ، ويركضان بفزع، وينفصلان رغمًا عنهما، يدان عنيفتان تسحبانهما إلى نهايتين مظلمتين، ويدان حزينتان ترجوان الوصل من جديد، ويهربان، والظلّ سريع يلاحقهما، يحرق الورد ليصير بقايا يابسة كأنه لم يكن يومًا ورد، والطيور تتلوث وتسقطُ على الأرض مذبوحةَ العنق، وتقول كلامًا لا يسمعه، وهو أيضًا يقول، وهي أيضًا لا

تسمعه، وتلتفُ قلادتان مختلفتان حول عنقيهما، وتضغطان بعنفٍ وقساوة حتى تصرخ لهفةَ ميتٍ إلى حياة، يعود الفراغ الصامت الهادئ، بلا أحلام، يتلاشى التوهج من البصر، وتضيق نقطة النور وتبتعد كثيرًا.

ويركضان في الحديقة بوجهين شاحبين، ويتباطأ الحماسُ حين لا يكون أمامهما أيُّ شيء، وتسقطُ من الفضاء غيومٌ غامقة لا تبشّر بالمطر، ثم يقفان على أقدامٍ بائسة، ويصعد همس مبهم يخبرهما بأن الفراشة التركوازية يغمرها ظلٌّ بلا مصدر.. وتختنق، في دخانٍ غامضٍ كثيف!

لهوجة

إشارة مرور الماشين على الأقدام حمراء، والمركبات رصاص يخترق لمحات من ضجر. أقف منتظرًا على الرصيف تحت مطرٍ يسكبه غيمٌ كثيف، وعلى الطرف الآخر شماسٍ كثيرة، ومعاطف ثقيلة غامقة داخلها أجساد تتّقي برد، وعيني على غصن يانع ناهِض الأركان بينهم، يتفتق في أعلاه وجهٌ أنثويٌ يظهر خلف المطر كفلّة.

الأخضر يعطينا الإذن لنعبر. هاجت الأقدام من خاصرتيّ الشارع. الخطوات تذوب خلفنا في ماء يسيل بعجل، خطوة واحدة تفصلني عن زوايا خطيرة التثنّي، خَطوتها، تقابلنا، لو يتوقف الزمن، تحاذينا، وغطيّت عيني اليسرى صارخًا بوجع.

التفتت، رسم شعرها قوسًا من بنفسج، شهقت، راحتها فوق يدي، راحتي فوق عيني، تتأسف بلعثمة، سيخ من أسياخ شمسيّتها خدش جانب وجهي بذيله المكشوف، وقادتني كفيف نحو الرصيف، بصري كان عينيها، بصرها يفتش عن نجدة.

– أنا آسفة حقًا، كنت مستعجلة ولم أنتبه، سأجدُ سيارة تقلّنا إلى المستشفى على الفور، أرجوك لا تقلق، آسفة.

ناعمة راحتها فوق يدي. قلت ملتاعًا:

– أنا بخير.

واقترب وجه يطل منه نهار بهي، وشفتان تنطقان بخار أبيض دافئ:

– جرح بطرف العين، عينك لم يصبها أذى.

– لا داعي للمستشفى إذن.

– تعال لنجلس في الداخل.

الداخل مقهى.

جلسنا وأعطتني من حقيبتها منديلًا ومرآة. جففتُ الدم الطافر من جلدي، وتشربتُ برائحة عطرها المتخفية في طيّات المنديل. قلت معاتبًا نفسي وهي تميل نحوي متوترة:

– ربما أستحق هذا.

استغربتْ كأني نطقت بلغة غريبة، وسكنتْ تعابيرُها لتقول من دون صوت:

- لم أفهم، أريدُ أن أفهمَ.

- في فترة وقوفنا بانتظار الإشارة، كنت أنظر إليكِ بحدّةٍ غيرُ مدركٍ لأيِّ شيء، ولم أكفَّ حتى أصبتني بشمسيّتك وأدركت.

وتعالى عبر جلد شفاف ورد أحمر قرص وجنتين، وابتعدت عني لتعدّل جلستها على الكرسي بظهر جدّي الاستقامة، وهي تقول بشماتة:

- يبدو أن عينك اليسرى كانت تنظر بحدّة أكبر، لهذا كان نصيبها أن تُخدش.

- أو لأنها أقرب إلى قلبي!

انتشر الورد في كلينا، وفي الجدران، وتنبّهنا إلى موسيقى عذبة تعزفها قطرات مطر على بلور نوافذ، وجاءت قهوة ستنتظر طويلًا دنو شفاه تلمع عليها سعادة خالصة.. وشردت لآلاف السنين، حلّقت خلالها حول قمرين كحليين كلون البحر العميق، حتى صحوت لأجدها شاردة في تحليقي، ثم سألتني بغنج مفاجئ:

- كيف حال جرحك؟

صرخت مفتعلًا الوجع وأنا أخبئُ جرحي من جديد:

- عيني، عيني تؤلمني.

وتدفقت من الحنايا ضحكات انطلقت في فراغ المكان، لتهمس في أذن نادلة متوجهة صوبنا وتجعلها تبتسم، وتستحي، وتعود إلى وراء دنيا تتشكل من جديد. ونسيتُ جرحي، ونسيتْ موعدها. أخبرتُها أن فروَ معطفها ناعمٌ، وأن يدَها حين لمستني أنعمُ. أطرقتْ وشبَّكتْ أصابعها بارتباك. واستيقظتْ شرارةٌ من رقدتها وسقطت فوق عشبٍ جاف. تجرأت، وأخبرتني بنبرة محترقة إن عيني مع الكحل الأحمر جميلة. كان هذا حين ملنا نحو بعضنا والشمسيّة تستر لقاء، ووجه القهوة يثور غيرةً والمقهى يمتلئ بإشارات المرور، والليل يمدُّ في الخارج ظلامه ونحن لم نزل معًا.. غصنان، غصنان يانعان يتعانقان في لحظة طيش، تحت شمسيّة واحدة نديّة.

وتعالت زمامير ساخطة من حولي، وصيحات أقلّها بذاءة تصفني بالجنون، وأنا أرى نفسي واقفًا وسط الشارع.. وحيدًا، مبللًا بمطر غزير!

جدل على هامش اللونجا

«عربدة»

- كم عدد الأقداح التي شربتها؟

- تقصد عدد الخيبات.

- كم خيبة شربت حتى الآن؟

تهرول منه ضحكة ساخرة تفتح باب المكان وتندفع إلى الخارج، ثم تقوم بطرق الأبواب الصامتة، وتهرب.

المأوى الملعون

فتح المغلاق الصدئ، جذب الباب الثقيل بصعوبة إليه، تناثر غبار دقيق متراكم فوق الحافة العليا، وعلق بعضه في شباك أرامل سوداء ممزقة، معدومة الصمغ، ثم ألقى من الشق الضيّق نظرة فزعة، بعين واحدة تنبض في بياضها أوردة صفراء، نبضًا غير رتيب، والعين مظلمة تخلو من النور، نائمة منذ قرون، ينعكس على بلورها العكر رعبًا لا يفنى، يحيا داخل دار معمّرة من حجارة عتيقة، لم تمر عليها الرياح كما مرت على الأنحاء، بعض أركانها متساقطة، وأخرى متهالكة موشكة على السقوط، ورغم اتساع الواجهة وشهوقها لا تجد فيها أي نوافذ أو طاقات، فجُعلت تبدو كجزء متبقي من سور قلعة أثرية عريقة، تم بناؤها في أحد العصور الغابرة، المليئة بشرور أحاطت الجدران عبر الزمن بغلالات من غموض، تبث في قلب الناظر غمًّا عميق.

تحرّك الباب..

الخشبي السميك الذي يبدو كأنه جزء من الجدار، انجذب أكثر، وأطلَّ رأس ثقيل الحركة إلى الخارج، رأى نفسه في خلاء، وظهور حارات متكبرة لا تحدّق إليه، وقرص أصفر نظيف يسطع معلقًا في السماء، وهواء عليل غير

حامض لمّا استنشقه أصابه برعدة، لكنه خشي على نفسه من عقاب، استردَّ رأسه خطفًا للداخل، وقبل أن يتمكن من غلق الباب تسللت قطة الدار من بين قدميه، ونفذت عبر الفراغ هاربة صوب الحارات، صار يناديها من خلف الباب بمواء، اختفت اللغة وفقدت قيمتها مع دوام الصمت في الدار، وبقيت أصوات الطبيعة، واختفت القطة عن ناظريه، ما قيمة الحياة دونها، الحياة؟ وفتح الباب إلى النصف، والنصف من جسده جاز العتبة وارتدى جلبابًا من ضياء، والنصف الآخر تبعه بعد لأي طويل، والجدار الخشبي في الخلف مفتوحًا على نحو ضئيل، لا توجد لهذه الدار مفاتيح، وأي مفتاح سيعيش كل هذا العمر؟

ومشى..

بعدها متمهلًا وهو يموءُ بشفاه قاسية تنادي القطة بضراعة، حتى دخل في ظِلال، واحتمى بجدران مصقولة عالية تكاد تنطبق لتدفن تحتها زقاق ضيق طويل، يفتش عن القطة الهاربة في الأرض.. في الأعلى انتبه، وانبثقت فيه أحاسيس ملغزات، مبعثها المكان الغريب الذي صار فيه، دبّت الحياة في المحيط، وراح يفقأُ عيونَ الناس بنظراتٍ من شك، وهم يشمئزون، يستدل فيهم عن أقوال أبيه، التي ورثها عن أبيه، عن أبيه، وهم يتّقون الاقتراب من

جرب يمشي على قدمين. دائمًا ما كانت تتردد في الدار تحذيرات من الخروج، فالنهار كما اعتاد السماع غير آمن، والناس فيه وحوش، وعلى الإنسان أن يولد ويموت في بطن هذا الهيكل، مأواه الأول والثاني والأخير، مثل السابقين المنهوشين بأفواه الدود، وبينما ظلَّ وحيدًا مع القطة انتابته شكوك، واحتدَّ به الأمر وضاق المكان، وفي صباح اليوم سأل: ماذا يوجد في الخارج؟ وتفاجأت عجائز العقارب واتّكأت على بعضها متسللة إلى الجحور، وحاصت القطة في الغرف الفارغة متحمسة من دون تصديق، وقرر أن يستكشف بنظرة من عين، قطّع الحبال المنسوجة في الممر المؤدي إلى الباب، يدٌ تتصرف بعبث، لم يكن على علمٍ بأنها ستهرب، لا يفقه شيء عن الهروب، ولا على ظنٍّ بأن مجرد خطوات قليلات ستكون كفيلة بنقله من دنياه المسيّجة بالحجارة العطنة، إلى دنيا لم يرها حتى في المنام.. واستمر، واستمر في التقدم من دون أي هدف في باله، ما باله يندهش في النظر إلى الأشياء والشخوص، كأنه يفتش عن أي أثر للقطة، أين القطة؟

في بداية زحفه على قدميه الحافيتين كانت المناظر قليلة، حتى بدأ الزقاق يتّسع، ويتفرع، وتخرج من جوانبه دكاكين صغيرة، وتظهر هياكل جديدة

وتقسو الأرض وتنظف، ويزداد عدد الناس والعيون، ويُسمع من السماء صخب أجنحة ترفرف بملء الإرادة، تتنقل بين الأسطح المتحاذية، كأسراب، ولم تمضِ غير فترة قصيرة، حتى تناهت إلى مسمعه نغمات هادئة تصدر عن صندوق خشبي جميل، هناك خشب جميل لم يصله النمل، اقترب من الصوت فإذا به أمام صالون حلاقة مفعمًا بأغان الصباح، كان مأخوذًا بما داعب سمعه من نغم، لحظة فاجأه صاحب الصالون وأشار له إيذانًا بالدخول، شأنه شأن المتسولين الذين يحلق لهم فِعلًا للخير، ثم استجاب ومال، بعد صمت طويل وتردد.

ونسي القطة..

ودخل مرتابًا من كل شيء في المكان، لا شيء مألوف هنا، وقدماه تلحسان الأرض باحتراس مشلولتان، متعبتان، كأنه مشى دهرًا بهما. استقبله الحلاق بوجه رقيق يخفي تحته عجب من هيئة الرجل الفار من الماضي، طالبًا منه بطيبة متأصلة عبر خمسين سنة أن يجلس على كرسي الحلاقة ليدركه بعد قليل، فاستجاب مرة أخرى بصمت، وجلس على الكرسي بشكل حذر كطفل أول مرة يتعلم الجلوس، وبينما قابل المرآة الكبيرة التي أمامه، اكتسى كله بالدهشة، الدهشة التي تكتنه أعماق النفس لتعبر عن صدماتها بالوجه، وجه نحيل

يتوارى خلف شعرٍ أسود كثّ، ينبت، يتطاول من كل مكان، وجسد مهزول يغطيه قماش مهترئ باهت كلون العرق، وعينين مثبتتين في كهفين عميقين، تتنقل فيهما خائفتين من شيء مجهول، هذا أبيه، وجدّه، وكلهم، هذا عائد من تحت الأرض، مدَّ يده نحوه فمدَّ الآخر يده، لمسه، لمس المرآة، فرَعبه ضجيج صنبور ماء انفتح، سحب يده بهلع، صدَّ عنه، وأرهف السمع لما يبثه المذياع، واسترخى رأسه على وسادة من جلد سالت منها برودة وصلت إلى رقبته المشعرة بمشقة، وتشرب جسده بخدر بطيء، ووضع يديه على مسندي الكرسي متجمدًا من دون أي حركة، وبدأ الحلاق يتجه نحوه بكعب حذاء يصدر إيقاعًا مقلق، كوقع الحوافر على الصخور.. يدق، يدق، وداهمت بدن الرجل رجفة برد حادة، ومن دون أي سابق إنذار، أي سابق شيء.. انطفأت الشمس المتسللة من الخارج، والأضواء خمدت في المكان كلها دفعة واحدة، وعمّت ظلمةٌ خانقةٌ، كقبر.

الحذاء يدق، يدق..

وصار يتلفت بوجل، محاولًا أن يرى أي شيء من حوله، لكنه وعى بأنه مغمّى بكيس قماشي أسود لا يسمح للضوء أن يمر، أوشك على تحريك يده في كل الاتجاهات بغية التعرف على مكانه، وأوشك على خلع الكيس عنه،

اشتدت أعصابٌ، يدان مربوطتان بمسندي الكرسي، وقدمان مربوطتان، ولسان معقود، منذ الزمان القديم، معقود، وحينها، انفتح باب، باب في الخلف لم يدخل منه هواء، دخل حذاء، يدق، يدق، ومع اقتراب الشخص المحمول عليه ازداد الاضطراب، وأرهقت الرجل الظنون، أنفاس الداخل مسموعة يخرج معها دخان يختلط مع رائحة المكان الغريبة، رائحة معتقة بآلاف السجائر. لم يزل الباب مواربًا، ونشطت حاسة السمع وقتها أكثر، وتجمعت فيها كل الحواس، بدأت أذناه تلتقطان أصوات كثيرة، لو يقطعون له أذنيه، لو يقتلوه، صراخ مرعب بعيد يركض نحوه من آخر نقطة في الأرض، أصوات اصطفاق أبواب حديدية تفتح وتغلق بعنف، وآهات ذئاب جريحة، تخرج بشكل ممتد طويل حتى تتقطع، تتلاشى، قاسيٌ عواء الذئاب.

ذلك الباب كان يفضي إلى العذاب، العذاب الرابض في الجحيم، وكل ما تمناه حينها أن يُغلق، أن يتوقف ذلك الرجل عن دورانه المستفز المريب.

واشتعل حريق في الفخذ، سيخ ملتهب مزّق لحمه والعظم.

وشاركهم..

شارك الصارخين في الصراخ، والمتألمين، واختلطت رائحة فخذه برائحة المكان، ودخلت إلى صدره لتلقى إسفنجًا يئن، وسمع صوت ولاعة تشعل سيجارة جديدة، والسيجارة الجديدة انطفأت في الجبين، واستمرت الولاعة بالإشعال، وجاء السوط، سوط دسم حين يميل يبث في الجو رائحة لحم بشري، جاء السوط، وهربت الروح من سطح الجسد منكمشة نحو الداخل القصي، وسيقت أصابع اليدين نحو مفاصل الباب وهُرست بينها، قاسيٌ عواء الذئاب، وتقطّعت أصابع القدمين بين أسنان القوارض، وتمزقت الملابس لتعري تمثال منحوت بإزميل جلّاد، وفقد الشعور بالذات، ها هو جسد مباح مجرد من أي رداء، ها هو لا شيء، امتلأ الكيس الأسود بهواء ساخن، ولجأ إلى أعماق نفسه يبحث عن السكينة هربًا من الألم، لم يجدها، وجد آباءه ينوحون، يرجفون.

ويتحلقون حول الكبير.

كبير هذه الدار الذي هرب في سالف الأزمان من السجن حبًا للحياة، سُجن لأنه حرّك حجرًا في طريق، وصرخ عليه لسان ينضح منه قطران أسمر يصفه بالحيوان، ونُهبت منه الجوهرة التي وجدها تحت الحجر وترصّعت بها النعال، وهرب من مقصلة تنتظر عنقه الغض ولجأ إلى هذا المكان المهجور،

تجاوز العشب الأخضر، والشوك، حتى وجد الملاذ البعيد، وحده كان قبل أن تزحف المدينة إليه وتُبنى الدور، وحين اكتظَّ الناس بدأت تحوم حول الدار خرافات وأقاويل، فصارت لها تلك الهيبة التي منعت أحد من الدنوِّ منها أو التفكير، وكان قد لجأ مع الهارب أقاربه بعد أن طاردتهم كلاب السجّان، رمموا الدار ووسّعوها وظلوا فيها متخفين، يأكلون مما ينبت لهم في الحوش وينامون داخل حجرات باردة مبنية من طين، وصار الكبير يحكي قصته ويحذّر من المصير الأليم في الخارج، ووصّاهم، ومات، والأوصياء وصّوا، وماتوا، وحين سئم الأخيرون هذه الحياة التي ابتلاهم بها الجد انفردوا عن بعضهم، لم يعد يتزوجون، ولا يتكلمون، يؤمنون بأن السجان في الخارج لا يموت، ويذوبون في تراب هذا الدار واحدًا تلو الآخر، يختفون، ويبقى هو، وصيُّهم الأخير.

لمس بأطراف روحه سطح الموت، حين صاح نصل المقصلة في سقوط، تموّج الموت وتلاشى في الفضاء، وأنزل عليه صاعقة اخترقته جعلته يهتز اهتزازًا شديد، ينتفض فوق الكرسي يريد الانفجار، يختزن في جوفه بركان يتهيأ لقذف حممٍ همجية القصد، والحلاق والجيران مذهولون يراقبون، هذا الجسد صار غارقًا في العرق بلا مفاصل، مثبتًا في مكانه بأغلال وهمية تعضّه من الأطراف، والنفس ثقيل، والزبد يخرج كالقيء من الفم، والمشهد مخيف على العيون، صار

الكرسي يهتز معه ويجرح البلاط، لا أحد يقترب، إنه يُحتضَر، قالوا يُحتضَر، أدار رأسه بصعوبة نحوهم فرآهم مسوخ ينفجر من أوداجها الدم، والحلاق الطيب بين يديه مقص مسنون مهيأ للسلخ.. يحاصروه، وانتزع نفسه من الكرسي وشهق الحياة من جديد، وتدافع عبر الناس إلى أن تخلص منهم بلهاث وقفل راجعًا إلى الحِصن المأمون، ودخل إليه وأوصد الباب، للأبد أوصد ذلك الباب، والناس متعجبون من هذا المخلوق، كان يركض ومسامات جلده تنفث الدخان.

والقطة..

ما زالت تركض بين الشوارع والحارات، تفتّح لونها وصار فروها أنعم، صار لها فرو، تركض كحصان يعدو في سباق، تمرُّ بين الأرجل بفرح عارم لم تعشه من قبل، وأنامل الناس تداعبها بعطف، القطة لن تخاف، ولن تعود، والوصي الأخير مثقل الرأس وحيد، وحيدٌ بين الجدران المعتّمة بحزن الأرواح، ينبش قبرًا تحت نخلة غامقة السعف تغطي السماء، ويرقد فيه، ويشمُّ رائحة الآباء، والعظام السابقة حوله تضرب بعضها بإيقاع نذير. هرب الجد الكبير حبًا للحياة، أي حياة؟ وبقي هو أسير الوصايا التي لم تنفك تطوف في المكان، تهمس له بصوت غامض الرنين، ويلفي حبات التراب تسقط من

حواف القبر بهدوء، قبل أن تنسلَّ إلى أذنيه أفعى سوداء منقوشة على جلدها وجوه مشوّهة، تصيح في فضاء رأسه بصوت مروّع:

– هذا جزاء الخارجين إلى النور، ممسوس أنت بي، أنا لعنة السابقين المدفونين الهاربين، أنا لعنة الدار الخالدة في جماجم الأوصياء، إيّاك الخروج أبدًا.. يا وصيًا، إيّاك.

ويستمرُ الارتعاش، والصدى، وتستمر حبات التراب اليابس بالسقوط!

كولومبوس على بعير

أوانها كانت تعلو كل شيء، الشمس الحامية، كما في كل أوان، تراقب بقعة الصحراء تلك بهيمنة وهي تنشر على السطح نهارًا مشعًّا، خانقًا، يلفح كل موجود بسخونةٍ غبراء، والظن أن هذه الدنيا الممتدة من بعيد، إلى بعيد، خالية من الأنفاس، إلّا أنه في مكان ما من هذا الامتداد الفسيح، بعيران يسيران بثبات، على أخفاف تضرب الأرض بتؤدة فيهيج من تحتها الغبار، هيجًا خفيفًا، يتقدمان بطمأنينة راسخة في الأعماق، لا تجد منها كثير في دواخل الرجلين المحملين على السنامين، أو في أحدهما، أخرجهما نداء العطش الملّح من أفواه القبيلة، حين حلّت عليهم اللعنات وانحسر الماء من المسارب، وكان هذا الاختيار، وحين يشحُّ الماء لا يمكن رفض الاختيار. واحد منهما لا يملك شيء من علم الأسفار، وواحد يملك، والزمن أحرقته الشمس وذاب، ويقول الذي لا يملك نادبًا على ما استسلم له جبرًا:

– يا لحظي العاثر، اختارتني القرعة لأرافقك من بين كل الرجال، وما أنا بفارس ولا داهية من الدهاة، ما القصد من إرسالي وتكليفي، يا لحظي.

خرج الاثنان منذ يوم أو أكثر، وأمامهما لا أحد يعرف كم من الأيام، متجهين نحو الشمال، إحدى القوافل التي مرّت بالقبيلة قالت إنها صادفت عين ماء عذبة لم يقربها بشر، عند شذوذ قافلتهم في إحدى الرحلات، وقالت إنها متخفية بين الجبال، وقد خرج الرجلان يرومان هذه العين بناءً على تلك الأقوال. الرجل ذو العلم لم يتوقف يضع العلامات والدلائل، كي لا يزيغ عنهما طريق العودة، العودة لنقل الخبر، لتنهض القبيلة وتحط رحالها عند الماء، هذا ترحال يألفه ابن الصحراء، لابد أن يألفه.

– سنصل قريبًا إلى العين، إننا نسير في الاتجاه الصحيح، لكنك تبدو جاهلًا بهذه الفرصة الثمينة التي أتتك.

– هائمين في صحراء لا بداية لها ولا نهاية، نبحث عن بقعة ماء ظهرت في أقوال بعض الزوار، إننا في طريقنا إلى الهلاك. أي فرصة هذه؟

كان هم الخبير وقتها أن يكفَّ صاحبه عن الشكوى، اتّقاءً لحلول الشؤم في الرحلة، حتى لو تمادى في تزيينها له، فقال بلهجة الحكيم العالم بكل شيء:

– من يجد الماء ينتشر صيته في الأرجاء، ويصير ممدوحًا بين الألسن، عظيم الشأن في مُهج القلوب، وستضرب له الدفوف لأيام وأيام، وسيطلق اسمه على العين، أو عساه يطلق على القبيلة، وهذا أسمى ما قد يصل إليه الإنسان.

أحدث هذا الكلام وقعًا كبيرًا في نفس الرجل النادب، وانقلبت الحال تمامًا، ماذا لو وجد العين حقًا وعاد إلى القبيلة بهذا الظفر؟ هذا السؤال بداية كل شيء، لاشك أن شأنه سيرتفع ليكون غرّة من غرر القوم، ذائع الصيت مقدمٌ على كل الرجال، فهو الذي صان حياتهم ونجّاهم من الجفاف المميت، هذا الكابوس الذي لا يكف عن مداهمة رؤى الصحراوي في المنام والقيام، ومن ثَمَّ، رنا نحو الأفق البعيد، نحو الجبال القصيّة المطلّة على البيداء كأمواج ثائرة ستضرب عمّا قريب، ومضى، آنذاك، في خيالاته محمولًا على سنام بعير، مع مرور الوقت استحال في الذهن مجلسًا مفروشًا بالصوف والحرير، يتحلق حوله أهل القبيلة محتفلين بالرجل أيّما احتفال، المخلّص الشجاع، الذي وُجد عند الشدائد وأفلح بالأفعال. ولهذا، عاد السكوت يغلف الساعات الطوال، لا يخرج منه غير بريق يطلُّ من العينين حين يومض في الحلم خليط من صور التوقير والتبجيل، والنساء، النساء الطامعات بالتقرب من ذي الخير الأصيل.

وتقلّبت الساعات بالساعات، وبصر الخبير واسع يشمل كل شيء، السفوح، والحجارة، والظلال، وأخرج من الخُرج قصبة ناي، نديمة السفر، وضرب عليها الثقيل من النغم، لإيناس الخواطر والتطريب، والآخر غائبٌ في صفوة الأحلام، أحلام أخذت تتعكر شيئًا فشيء، وقتما انبثق شبح الحقيقة من بين الصور وأفزعه، وأيقن أن كل ما مر في الذهن سيبقى حبيس الذهن ولن يقع، طالما أنه مرافق تعوّدت القبيلة إرساله مع الباحثين عن الماء، واختياره قد حددته قرعة حظّ لا تعطيه أي صفة من صفات الشجاعة التي يثمّن بها الرجال، بل على العكس، إذ إن القبيلة لا تريد التضحية بأكثر من خبير، الخبير! هذا سيكون صاحب الفضل إن حدث أي فضل، وأخذت تعترضه الوساوس وتفعل فعلها في الصدر، وستائر العظمة تنسدل فوق النوافذ حاجبةً أي شعاع خير، ومعلنة بداية القتامة والظلام.

واستمرت الدنيا بالامتداد، والحال تتغير على الدوام، الأرض تهبط وتطلع، والطرقات تتسع وتتضيق، والأخفاف مازالت تدبُّ على قشرة الصحراء بكل خشوع، لا شيء ينبئ بشيء، والعيون ترصد الآثار تجيل في الأنحاء، والصفير من الرياح ما زال يخمش الصمت المخيف، والبعيران يهزّان برفق ما يحملانه من حمائل، والدلائل تتلو الدلائل، والذي كان بعيدًا ظلَّ بعيد، والسماء البيضاء

تخلو من الطيور، والحجارة الملساء ينكسر عليها الضوء فتلمع كالمرايا، والناي يداعب حرَّ الجو بأنغامٍ رقيقة، والقمر يظهر في الليل بوجه يعلوه الضجر، قريبًا كأنه يتكئ على أحد الجبال، والنجوم اللامعات تهدي ليلًا كل ضال، والرمال تبدل قميصها لكنها تبقى رمال، والسراب لاطئًا بالأرض في كل اتجاه، والأمل كل الأمل أن واحدًا ليس يكون سراب.

وصعدا صعدة استراح لها الفؤاد، بهمة البعيرين الصبورين، وما إن وصلا القمة السامية حتى هبت نسائم رهيفة مبشرة، وارتفعت الشمس واستيقظت من فورها الألوان، ألوان الغبار، لا شيء غير الغبار، ولون أبيض جديد غير مألوف في هذا الخلاء، كطفل مقمّط تحيطه الكهول من الجبال، يرقد فوق كف طرية من طين، العين التي قال عنها الزوار، قال وقد صدق ما قال الزوار، واضطرب القلب فرحًا وشاع في الجو هواء عليل، نقيَّة كانت العين كأنها انسكاب من سماء، نهز الخبير دابته والتفت على صاحبه يعطيه الخبر، ويصيح بتمديد الصوت: الماء، الماء.

ولمع في الخلف نصل صقيل، تشيطنت عليه أصابعٌ غوادرٌ من بينها سم يسيل، ثم اختفى وظهر من جديد، أين تختفي في الصحارى نِصال الحديد؟ صراخ ملأ الأركان وهزَّ الصخور، لا أمان لا أمان وحامت وقتها الصقور،

ارتفع النصل ملوثًا بدم ولحم الرفيق، والبعيران يتحاذيان بكل هدوء، أحدهما صار خفيفًا والآخر ينوء مثقلًا بالإثم العظيم، والنصل جشع لم يشبعه لحم الظهر فاستقر في رأس الحكيم. وظل الرجل وحده مع الجملين، وحده، والكل يقصد الماء الوفير، والخبير يتدحرج على منحدر الجبل بلا روح، جسد أحمر متبّل بالغدر والرمال، بلا روح. واستقبلت العين القادمين بكل ترحاب وحبور، هذا انتصار كبير لا يحدث في أي حين، إنه من مآثر الأبطال، وحدهم، إنه من مآثر الخائنين.

ونزل الرجل عند طرف العين بوجه بهيج، وراح يسبح غاسلًا نفسه من العرق والغبار، وكأن الذي كان ما كان، لا بل قد تضاعف الزاد، وتوفر الخير والماء، فقُدحت الأحجار، واندلعت النار، وأخذ الرجل يأكل ويشرب حتى كلَّ فوه، ثم أخفى خلال أيامه جسدًا مزدحمًا بالطعنات، وقال إن هلك الخبير لابد أن يهلك البعير، وتوجهت يداه مع النصل فانفجرت الروح الثانية في شخير، وصار بين اليدين لحم كثير، والنار يذكيها بيابس الشوك فيزداد الهدير، وألسنة اللهب المتراقصة تأخذ بالبال إلى بعيد، فانتوى العودة للقبيلة بغية التبشير، ومحا علامات الرفيق، ودبج حكاية مُحكمة سيلقيها بين أيادي القوم العطاش، وعزم أن يعود، وصعد من حيث ما نطق الرجل الهالك آخر الكلام،

ثم مشى براحلته في تلك الأرض المتسعة حيث كل شيء يشبه كل شيء، يا لقساوة الطريق، أين الدلائل والآثار، لقد ضلّ لقد ضلّ، وتراءت له نُصبًا من حجارةٍ سوداء، ما أن يقترب منها حتى تتوارى خلف الغبار، رأى أناسًا، وحيوانات، ومشاعل نار، كل شيء كان يتوارى خلف الغبار، لم يتبقَ غير الخوف من ابتلاع الصحراء المحمرّة له ولراحلته فقرر العودة للعين، لم يجد العين، ولا القوم.. فخاب، وكان له هذا المآب.

وعرف الرجل بعدها عطشًا شديد، يبس الجلد وانكمش وازداد في البدن التوتر والخمول، لو أبقى البعير الآخر لحمل له المزيد من الماء، لكن لا بعير، لو أبقى الخبير لأنار له الطريق برشده، لكن لا خبير، أين أنت أين أنت هكذا صار يصيح، من جوف مالح ينوح ويصيح، والجواب يأتيه صدى ينطق به المدى المفتوح، صدى يحمل نغمات ناي تسري في الأرض فتهتز، فيزيد الذعر والندم والغبار.. عمّه الغبار، وصار لونه كلون البعير، كلون الأرض، كلون أطراف الشمس التي امتدت حتى شملت نواحي الكون، والبخار كثيف، ينتزع نفسه بيسرٍ من اللحم الجفيف. نشفت العيون، واصفرّت العروق، وتدلى الرجل وهوى من فوقٍ بلا اعتدال، وأحسّت الراحلة في لحظة أنها فقدت حملًا ثقيل،

والأرض تلقفته والصدر لفظ النفس الأخير، ثم تلته الراحلة بعد أيام.. يا لبشاعة الأيام، يا لشناعة المصير.

وطال عليهم الزمان، وطال، حتى سطعت الشمس في يوم على عراء يغطي تحته عراء، وتراب يغطي تحته تراب، وظلّت عين الماء على هذا النحو مطمورة بين الجبال، عصيّة على أفراد القبيلة الذين فقدوا كثيرًا من الصلّاح والأخيار، فأيقنوا أن تلك العين تضمر سرًّا خطير، وتردد صوت هلع من الحناجر الجافة يقول: لابد أن في باطنها وحش يبتلع أي نزيل يحلُّ عندها وأي خبير.. يا قوم، عجبًا، كم هو من وحش حقير!

جدل على هامش اللونجا

«ملابسنا الداخلية»

– البارحة غرز جاري سكينه في صدري.

– ما هو السبب؟

– كنت أنشر الغسيل ورأى ملابسي الداخلية.

– لماذا غرز السكين في صدرك؟

– بعد كل السنين التي تبادلنا فيها السلام، تفاجأ أن لون ملابسي الداخلية تختلف عن لون ملابسه الداخلية.

– وماذا فعلت أنت؟

– غرزت سكيني في رأسه. يا للهول. لقد تفاجأت أيضًا.

صبريان

عائدٌ من المدرسة، محملّا بالخطابات والكتب الثقيلة، ببدن منهك، ورأس متصدع لا يفكر سوى بعدِّ الأيام المتبقية للعطلة، تحت ظهيرة تلسع الجبين، ووهج يغلف الناس الكثيرين المنتشرين في الطرق، ويخطر في باله قولٌ يربط بشكل مبهم بين الاسم والنصيب، النصيب غيبٌ غير مُدرك، والاسم صبري، على اسم جده، لكنه لا ير في الصبر أي طائل، هذا احتيال احتيال، فلماذا هذا الحُكم الجائر، أكل العمر يكون صبرًا؟ ومستاءً يتهامس مع نفسه مرات "من الأجدى أن يقال لكل امرئ من جده نصيب، هذا أعدل" لكنه تعلم أن يحترم الحِكم والأقوال القديمة المطرزة، مهما كانت نفسه تتهامس معه، ولهذا، وعلى رغم هذا.. هو صابر في كل حال.

وعلى غير ما تعوّد، عند أحد الأركان المألوفة بخلوّها، لاحظ تجمعٌ آدمي تدانى حول شيء ما، يبرز منه رجل اكتسب هيئة العملاق من وقوفه بين القصار المتجمعين، أولاد في مثل سنه، معظمهم من طلاب المدرسة الابتدائية. شدّه المشهد كثيرًا، منظر كهذا شهي ويشدّ، غير أنه تحامى عنه بالنظر إلى الأرض، مستمرًا في تقدمه نحو المنزل، لا يجب أن يتأخر، لم يتأخر مرة في حياته،

خوفًا من والده المنضبط الذي حدد له كل ما يحتاج لتحديد، ولم يترك له أي مساحة تكفي للانزياح عن الطريق، مواعيد لا تُخرق، تعليمات لا تنتهِ، ومستقبل مطبوخ على نار الطموح الأهلي غير الهادئة.. وبينما كان يزحف بكل ثبات، كسلحفاة أُبتلي ظهرها بدرقة ضخمة تحط عليها طوال الوقت، ويقترب، كان المشهد يزداد في الوضوح، والعقل يأخذ في الصحو والتحريض، وفي ثانية يصرخ "إنها كرة" ويستدرك "هناك عقاب" وهو من دون أن يفشي هذا السر لأحد، في أعماقه شعور لذيذ لا يوصف متعلق بالكرة، يتذوقه حالما تصبح في متناول بصره، ربما لأنها كانت شيئًا عزيزًا بعيد، شيء ممنوع بإحدى القرارات، اللعب دائمًا يؤجل إلى ما بعد الدراسة، وعندما تجيء العطل يتم هدرها في تجمعات عائلية مملة، ويتقاول مع نفسه مرات، متى ستنتهي هذه الحال، متى سألعب؟

تجرأ ووقف، تجرأ ونظر بعمق إلى التجمع، ثم انتزع نظره ومضى، ثم عاد، حتمًا سيعود، طعم الشعور الذي لا يوصف ذاب على اللسان، سيتأخر ويأخذ نصيبه ضربًا أو توبيخًا، لا يهم، وعاد إلى المتجمعين، لا يهم، وزاحم بينهم متثاقلًا بحقيبته الكبيرة، إلى أن احتل مكانًا قريبًا جدًا من العملاق، رأى أمامه شيئًا يشبه الآلة، سلكٌ نحاسي متعرج بشكل عشوائي، وبنهايته ضوء صغير

وجرس، لُعبة، يشرحها الرجل للمرتادين الجدد وهو يطبطب على الجائزة، موزعًا على المتفرجين بحماس بالغ عبارات الإغراء والتهييج، لُعبة، ينبغي فيها تمرير حلقة على طول السلك من دون أن تلمسه أدنى لمسة، وإذا حصل ولمسته، فالضوء سيتوهج والجرس سيقرع، مما يعلن خسارة اللاعب النقود التي دفعها، لُعبة جميلة، هكذا يقول الرجل، الكرة أجمل من اللُّعبة، هكذا يقول صبري.

رمى نحو الرجل سؤال سريع، اندمج مع كثير من الأسئلة، ثم غرز يده في جيبه، وأخرجها ليجدها ظافرة بعشر ليرات، تمامًا كما قال له الرجل، والكرة تساوي أضعاف هذا المبلغ، مجازفة فيها احتمال الفوز يطغى بحلاوته على باقي الاحتمالات، هذا قانون لُعب النصيب، ما بال النصيب اليوم؟ وليخسر الليرات العشر، الكرة أجمل من الليرات العشر، هكذا تم يقول.

وسلّم النقود من دون تردد، وأعلن الرجل أن اللُّعبة الآن تحت تصرّف الولد صبري، وخلال ثانية، أجاب على سؤال قرصه من الداخل "ماذا عن أبيك؟" سيخبئ الكرة في خزانة ملابسه، وسيلعب بها في السر، هذا مرسى الأمر وانتهى. وتخلص من الحقيبة، ركنها بين قدميه المستقيمتين وتحرر، ثم أمسك المقبض الخشبي الموصول مع الحلقة، بيدٍ ثابتة واثقة، وخفق صدر

مرتفع، وعينان تقصدان الكرة بنظرات تحدٍ ووعيد، ثم توجه انتباه الحاضرين إليه، وتدافعوا حوله متفرجين، وبدأ بتمرير الحلقة، بدأت اللُّعبة، على مهل وبانسيابية شديدة، وبملامح وجه حازمة تجاوزت حدود اللعب، كأنه كان يفكك لغمًا حربيًا مزروعًا تحت هذه الكومة من الأولاد، لكن مهما يكن من شيء، ومهما يكن من قول، لقد كان يتعامل مع هذه اللحظة، حقًا، على أنها لحظة مفصلية حاسمة، في تاريخه القصير، الفقير بالحسم.

واضطرب الولد صبري بشكل مفاجئ، غريب هذا الاضطراب، اقترب جدًا من النهاية، بعد تجاوزه لأقسى التعاريج، غير أن الحلقة اهتزت في يده حتى لامست السلك وصاح الجرس، يمينًا ويسارًا صار يتلفت بتحفز، خلفه، ها هو، والله لقد رآه، الجرس مازال يصدر نعيق الفشل، والعينان تنشران شرار السخط والغيظ، لا أحد غيره شعر به، أحد الأولاد ضربه من الخلف ضربة غادرة مخفية، سببت له هذا الاضطراب، رآه، والتقت عيناه الغاضبتان بعينيه، الحرب إذ تبدأ تبدأ بنظرة غضب، فترك ذاك الولد المؤذي التجمع وبدأ يسير مبتعدًا، مرتاعًا من التهديد المستور، بطيء كان أول ما سار، حتى صار يركض حينما أيقن تمامًا بأن الغضب انتقل من العينين إلى القدمين، وبدأ يُطارد بشكل مفضوح، لا ينكره أي بصير.

هائجًا صار الولد صبري يركض، والحقيبة خلفه تقفز وتخلط ما فيها، وجدران الصبر التي بناها في داخله بدأت تنهار، جدار إثر جدار، ومفزوعًا أخذ الولد الآخر يهرب، متنقلًا بين الأرصفة والشوارع، هروبه أكد قصده الشرير، الدفع كان متعمدًا لامحالة، والنظر للخلف جعله يترنح ويميل، ويتأخر، ويتعثر، مما أوقعه تحت وطأة قبضتين عصبيتين، أخذتاه أخذة شديدة، فتم الإمساك به والسيطرة عليه بالكامل، ثم بدأ التحقيق:

- لماذا دفعتني، لماذا؟

- لم أدفعك، لست أنا.

- أحسست بك لا تكذب، اعترف هيا.

من ينظر من بعيد لن يرى سوى ولدين يتشاجران بشكل اعتيادي يحدث بين الأولاد، لسوء فهم أو نكاية بينهما، أما في الحقيقة، فقد كان هنالك أمر عظيم يتم تسويته، لو كانت الجائزة الضائعة غير الكرة لما تجرأ منذ البداية واشترك في هذه اللُّعبة ضاربًا عن قوانين أبيه صفحًا، ولا كان قد أمسك الولد الآخر وأسقطه أرضًا بكل هذا العنف، وهو يضع ثقله عليه، ليصرخ الممسوك مستغيثًا:

– سأخبرك بكل شيء، ابتعد عني لقد اختنقت.

ولا كان قد بدأ الاعتراف، بصوت متقطع يستجدي الخلاص:

– لقد دفعتك عن قصد، لكني مجبرًا على هذا صدقني.

– أنت كاذب.

استجمع الولد الآخر مزيدًا من أنفاسه الضائعة في المطاردة، وأدرك أن عليه التوسع في الشرح أكثر، فتوسع:

– عليّ أن أعيق كل من يقترب من نهاية السلك، وأنت كنت على وشك الفوز، فدفعتك مجبرًا، أنا آسف حقًا.

– لماذا مجبر، لا تكذب، اترك ذاك الرجل وارحل إن كنت لا تود فعل هذا.

– إنه أبي، أين أرحل؟

انطفأت الشرارات، وارتخى الحاجبان المنتفضان ليشكلا نظرة أسى على الولد الذي نطق اعترافه بلهجة مرّة، حتى استدمعت عيناه في النهاية، أحقًا ذلك الرجل هو أبوه! لماذا يدفعه للقيام بهذا الفعل السيئ؟ تساءل صبري، ثم تذكر أباه المنضبط ووقف لحظة يقارن، "لا يجب على المرء أن يفعل إلّا ما يحب"

هذه عبارة تلقاها في إحدى حصص المدرسة، ثم وفي حصة أخرى تلقى عبارة تحث على طاعة الآباء، أي العبارتين صحيح؟ هكذا فكر صبري، على حين كانت يداه تنهضان الولد الأخر، وتنفضان الغبار من على ثيابه، ثم اعتذر إليه وطلب أن يسامحه على كل ما بدر منه، وأخبره ما الذي قد ضاع منه، ضاعت الكرة الجميلة.

جلس الولدان المتصالحان بعدها على حافة الرصيف، مستسلمان للحال التي جرت، متعبان من الركض والتحقيق، ثم سأل الولد الآخر الولد صبري، وبصره يبرق نحو الحقيبة:

- كنت في المدرسة، صحيح؟

- نعم، وأنت؟

- ذهبت إليها مرة واحدة فقط، وعندما قرأ والدي الورقة التي أعطوني إياها هناك منعني من الذهاب مرة أخرى، وجعلني أرافقه في كل جولاته، كل يوم بجانب مدرسة جديدة من دون أن أدخل لأي منها، لأفعل كما فعلت

معك، ويعطيني في كل مرة ليرة واحدة من العشر ليرات التي يكسبها، هذا أفضل لي، هذا ما يقوله دائمًا.

– ماذا قرأ في الورقة؟

– مستلزمات المدرسة، ومنها هذه الحقيبة التي معك، إنها جميلة، أليس كذلك؟

– لا أدري، إنها متعِبة، لكن أتعرف، أنت محظوظ جدًا، من المؤكد أنك تلعب في الكرة طوال الوقت، محظوظ.

– الكرة يجب أن تبقى نظيفة، هي عملنا وباب رزقنا، لهذا أكتفي بتأملها فقط.

تنهد صبري محدثًا نفسه، والآخر:

– لو تركتني أنهي ذلك السلك وأفوز، لكنا الآن نلعب فيها معًا.

ازداد الاحساس بالذنب عند الآخر، وازداد التأنيب، بعد أن رأى نتائج فعلته على صبري المحبط والمنهار، وقال بعد تفكير وشرود، وتقاسيم وجهه بدت أكثر جديّة وإقدام:

– إذا ما حاولت مرة أخرى، أتعدني أنك ستفوز؟

فرد المغلوب على أمره:

– لا يفيد الوعد، لم يبق لدي أي نقود.

– لا تحمل همًا، وعدتني أمي إن ادّخرتُ من النقود التي يتركها لي أبي، ستشتري لي ما طلبوه في المدرسة وتعيدني إليها، وقد بلغ ما استطعت ادّخاره للآن عشر ليرات، سأعطيك إياها لتلعب مرة أخرى، لن أطاوعهما هذه المرة، لكن عدني أنك ستفوز.

دبّت في عيني صبري اليقظة من جديد، قبل أن يقفز بهمة عالية، ويقول بثقة:

– أعدك، انتظرني هنا وسأعود أنا والكرة.

وغادر صبري، وفي رأسه رنينٌ يعلمه بأن الحدود قد تم تجاوزها بشكل مريب، وما من شيء يفعله أسلم من التوجه حالًا إلى المنزل، وأن والده لن يسكت على مخالفته اليوم، لا شكّ أن في انتظاره حساب عسير، لكن مع تقدمه نحو الكرة، كانت عزيمته تتضاعف، ضاغطةً بثقلها على كل التحذيرات، وعلى يده القابضة على السلاح الذي سيعارك فيه من جديد، عشر ليرات الولد

الآخر، الذي أخذ يحدق في ألوان حقيبة المدرسة الزاهية، بعد أن أودعها عنده صبري، هذه المرة الأولى الذي يقترب منها إلى هذا الحد من حقيبة، ثم جذبه الفضول، فضول الأولاد، فتحها وبدأ يستكشف الأدوات التي فيها، ويتفحّص الكتب مبتهجًا بالرسومات والصور، ثم حمل الحقيبة كلها وارتداها على ظهره، فوق القميص الداخلي الأبيض، الذي يستر البدن الهزيل، وحده كان يستر، وراح يتمشى على الرصيف مستلذًا بإحساسه الجديد، الذي تجلى في عينيه نظرة قوة ترصد كل طالب في الجوار، على عكس نظرة الضعف القديمة، فقد أحس في توّها أنه منهم، ولا ينقصه شيء ليكون واحد من هؤلاء الجميلين، السائرين في كل مكان، فجعل يتبختر على الرصيف، كأنه يرفل بقميص من ذهب.

على الطرف الآخر، وفي التجمع الآدمي، الولد صبري يقود الحلم والوعد، لم يكن هذا مطلبٌ مدرسي، ولا عائلي، بل كان مطلبًا داخلي مخبوء، يلحُّ دومًا على الخروج، ليفجر الدهشة ويحدث الفرق، وفي هذا البعد من حياة صبري، حيث كل شيء ممل ومتوقع، كان لابد من الانفجار، وهكذا، وبكل هذه المسؤولية، أخذت الحلقة تمر عبر السلك، والعرق ينبت من تحت الجلد، وأخذ الولد الآخر يمر عبر الطلاب مزهوًا بدرقته الملوّنة، هذا ولع لا يمكن تجاهله،

إلى أن اقتحم سمعه بعد حين صوت هتافات عالية، تخرج من حنجرة فرحة تكاد تغص بما فيها، فاستدار نحوها، بكل الولع والإثارة استدار، ولم يكن ذلك الهتّاف غير الولد صبري، كانت قدماه تتسابقان فيما بينهما، تركضان، تدوران، تخبطان الأرض بشكل رشيق، والأرض تنط بهما عاليًا في الهواء، ليختلط رأسه مع النسمات العاليات، كان يتقدم وبين يديه تتوهج الكرة الجميلة، لم ينعق الجرس لا، ولم تحق به سوى صفقات التهنئة والإعجاب، فأخذ الآخر يركض نحوه باندفاع، رغم ثقل الحقيبة التي على ظهره، أخذ يركض، اختفى الخوف من العقوبة، فلا ندم على مثل هذه اللحظات، أثرها سيبقى ما بقيا، وطعمها لن يشابهه أي طعم آخر، مهما نهضت بهما الدنيا أو سفُلت.

قذف الولد صبري الكرة نحو الولد الآخر، فأمسكها هذا وأعاد قذفها، حتى بدا الرصيف الصغير الذي يجمعهما ملعبًا أخضر واسع، مفروش بعشب سقط من نعيم السماء، وسياج من حرير ناعم امتد من بعيد، فصارا يلعبان، ويشهقان، ويقفزان، غير واعيين بأي شيء آخر، إلى أن حانت تلك اللحظة، التي لا شكّ أنها ستحين، فأخذ صبري الكرة وقدّمها للآخر وفمه ينطق، بكل صدق ومحبة:

– هذه الكرة من حقك، فأنت من دفع النقود، ولولاك لما حصلنا عليها.

كانت عينا صبري تحدقان صوب الكرة بتألم، ويداه تمسّدان جلدها بحنان، كمن يمسّد على ظهر شخصًا عزيزًا عليه في لحظة وداع.

- بل هي لك، ولولاي لفزت بها منذ المحاولة الأولى.

هكذا رد الآخر، فتفتق ذهن صبري عن فكرة، هذا وقت التفتق والأفكار:

- حسنٌ، سآخذ أنا الكرة، لكن بشرط أن تأخذ أنت الحقيبة وأن تذهب في أقرب وقت إلى المدرسة.

ثم تهامس مع نفسه من جديد، معقبًّا:

- لا يجب على المرء أن يفعل إلا ما يحب.

وبينما مرت بضع لحظات صامتات، في محاولة لاستيعاب الذي حصل، في هذا اليوم الملتهب المقيت، الذي لم يكن ينبئ بأنه سيكون يوم الانفجار والأحلام، رأى صبري والده من بعيد، متلفتًا متقلق، يبحث عنه بين الطلاب والناس، وفي الوقت عينه، رأى الآخر والده المنزعج الخاسر، في نفس الوضع، فقال صبري بتسليم:

- يجب علينا الذهاب، سنلتقي مرة أخرى، صحيح؟

- بالطبع سنلتقي.

تعانقا، والحرب إذ تنتهي تنتهي بعناق، وافترق الولدان، باتجاه والديهما، يحمل كل منهما كنزًا ثمينًا جديد، وقبل أن يغيبا عن بعضهما تمامًا، التفت صبري ونادى الآخر متذكرًا:

- لكن لم تخبرني عن اسمك، ما اسمك؟

فرد الآخر قبل أن يختفي، وقال:

- على اسم جدي.. صبري!

النذل

ينقر الأستاذ بالطبشورة على ظاهر السبورة الخضراء، نقرة تصدر عنها مويجات من توتر تتردد في فراغ الصف كرائحة عفونة تتجهّم بسببها الوجوه، وينزلق بها نحو الأسفل ليكتب عنوان درس اليوم، الطبشورة، وتنكسر قبل أن يتم كتابة الحرف الأول. تتحرك أنفاس التلاميذ في الخلف كاتمة ضحكات ساخرة، لكن الأستاذ يكظم غيظًا عمره قرون، وينفخ غبار انكسار الطبشورة وانكساره من على ظهر يده، ويبصق مشمئزًا، ويستأنف الكتابة بالقطعة المتبقية، وهذه تذوب على السبورة لارتفاع رطوبتها بعد البصقة. يتشنّج عصب الإبهام قصدًا لبتر الطرف الرطب، وفي وقتها لا يتبقى من الطبشورة الطويلة سوى قطعة صغيرة تختفي في لحم الأصابع، يرميها ساخطًا على الأرض، وتزداد سخرية الأنفاس وتحمرّ أذناه ارتباكًا، وحنقًا، ثم يبتلع ريقه ويستدير نحوهم بعد أن يحصر نقطة عرق في عبسة متأصلة كندبة في الجبين، فيجدهم نسّاك معتدلي الجلوس في طقس عبادة مهيب، يقول بنزق المُهان:

– أوباش!

ويستمر الخشوع قناعًا ترتديه الوجوه، ونظره يتوزع عليهم بالتساوي علّه يلاحظ زلّة تتفلت من أحد التعابير، ويتعجب من تلميذ هازئ اللهجة يقول:

– أستاذ لا يستطيع السيطرة على طبشورة!

ويقول تلميذ آخر:

– لا أحد يطيقك، عليك أن تعمل أستاذًا في مقبرة.

ويضيف آخر:

– حتى الأموات سيهربون.

يدهِش الأستاذ وينقض على أجساد طرية ويقتلع من وجوهها العيون، فيُدميها وتصير الوجوه باكية من غير دمع، ويقف لثوانٍ عاجزًا عن النطق، ويتجاهل بعض الهمهمات واضحة المصدر، رغم أن أحدًا منهم لم يفتح فاه منذ نقرة التوتر، ويصرخ إبّان خلاصه من إشباع خيال نهم لا يؤمن بالرحمة:

– اخرسوا.

ويفقد السيطرة على قناع الوقار الثقيل، يسقط، ويمسح الخط الذي رسمه ويغير موضع الكتابة باضطراب يُدرك من دون أي جهد، ويلتقط طبشورة

جديدة وينقر بها على السبورة. تظهر نقطة، ويتخدّر رأسه بقرصات من نمل يزحف إليه من فتحتي أذنيه ويحس بجوفه ينقبض، حينما يشاهد الطبشورة الجديدة تنكسر. تستفزه الضحكات والتعليقات المتكاثرة خلفه، ويتسمّر في مكانه مقابل كابوسًا بشعًا أخضرَ. صخب التلاميذ يزداد في الضغط عليه ويفقده القدرة على الالتفاف. ورصاصات من ورق تصيبه فتخلف وراءها عرق لزج يتلبّد أسفل الظهر. أخيرًا، تصل هدية السماء، النقطة على السبورة تصير ثقبًا يخترق الجدار، ثم يتوسع شيئًا فشيء ويصبح فوهة بعرض كتفين، ويولج داخلها بسرعة هاربٍ من صاعقة، وتتحرك أطرافه برتابة أطراف حشرة، ويزحف في نفق ضيق مبطن بكلس واهن القوام، فيه شرخ يُرى من خلاله بلبلًا يستيقظ ويفرد أجنحة ملوّنة، ويدور حول أوراق حُمرٌ تتغنج لتكشف عن وردة بديعة، ثم يقف على غصن أخضر، وفي لحظة يصير غصنًا يابس، ويموت البلبل عالقة في قشرة الغصن الخشنة، لا يحزن عليه ويتابع حتى يصل إلى نهاية النفق، وتكون نافذة تطلُّ على صفٍّ مدرسي، يسكن عندها وتجحظ عين متشوقة، يرى تلاميذ يمزقون كتب بمخالب، ويلوكون ورق بفكوك طرية تبصق كرات من لعاب، ويرى واحد منهم مشوّه الوجه لا يملك غير فم، يحسّ وقتها بإحساس غريب، قديم، مألوف، ويراه يشعل ورقة ويدسّها في مقعد، فيلتهب الخشب وحوله شامتون يصفقون، والدخان الأسود

يملأ المكان، يحجب أي شيء إلّا أحداق قطط متوحشة تضيء بنور مزعج، والمشوّه يرسم بإصبعه على السبورة دائرة من نار، ويسأل الجمهور "ما هذه؟" فيجيبون بصوت واحد "الكرة الأرضية" ويقف على الكرسي ويخطب فيهم بتفاخر "في يومٍ قادمٍ، سأكون أنذل من يمشي عليها" وتُرفرف الكفوف مصفقة، ويُحسد على هذا الطموح، ثم يشير ولم يزل على الكرسي لتلميذ آخر، إشارة مفهومة بين رئيس ومساعد، فينخلع المساعد من مكانه ويبدّل علبة الطبشور.. حينها ينشقّ الباب، يتوزع الجميع في مكانه في غضون ثانية وتنطفئ النار، ويرى أستاذهم يدخل إلى الصف بوجه عنيف الطيّات يحوي قرف، وتهرب الشمس ويحل مكانها غرابًا داكنًا كالفحم، ثم يراه يمسك طبشورة من العلبة المبدلة ويهمّ في الكتابة، وتنكسر، ويبصق، وتنكسر مرة أخرى ويرميها على الأرض مع شتيمة لحظّه المنكود، ثم يلتفت ويسمع صوت تلميذ يكلمه بلهجة هازئة، ثم تلاميذ، ويأمرهم أن يخرسوا، ويعود ضجرًا ليكتب من جديد، لكن شيئًا غير النقطة لم يكتب، ويرى أن التلاميذ يشيرون إلى الأستاذ بسباباتهم ويضحكون، يقذفونه بالورق والإهانة، فيحتدم غيظًا من خلف النافذة حينما يرى كل شيء بأم العين، ويقرر الانتقام من هؤلاء، ويعود من النفق الضيق إلى الصف. قذيفة حامية تتدحرج عبر فوهة مدفع في لحظة حسم. تكون الشروخ في طريقه كثيرة، والبلابل، ويستدير نحوهم فور خروجه

ويكونون نسّاكًا خاشعين. يبحث عن المشوّه ولا يجد غير وجوه وديعة، ثم يلتقط ما يتبقى في العلبة من طباشير ويرميها في وجه أقرب تلميذ، ويزعق والغضب زوبعة تعصف حوله:

- ستنالون مني عقوبة لم يتخيلها إنسان قط.

فيقول التلميذ خائفًا رجفًا:

- لم نفعل شيئًا يا أستاذ، ولم ننطق بحرف واحد.

يكون الطالب مُقنِعًا في انفعاله، إلى درجة أن الأستاذ يدير رأسه صوب السبورة، تكون مليئة بالكلمات، ودائرة كبيرة في الوسط، فيزداد غضبه:

-من الذي قال إنه سيكون أنذل من يمشي على الأرض؟

ويشير التلميذ إلى جهة لن تتوقعها جيوش من الأساتذة حتى لو تفكّر أبدًا، تكون هذه الجهة لا تحوي أحدًا سوى قطوب الحاجبين المغبّر بالكلس الأبيض، والصغير يقول ببراءة المستغرب من سؤال بديهي:

- أنت يا أستاذ!

جدل على هامش اللونجا

«متى؟»

– متى سنشعلُ القناديل؟

– لا يمكنك أن تسأل هذا السؤال.

بريبة:

– متى سنشعلُ القناديل؟

– لا يمكنني الإجابة.

بتضرّع:

– متى سنشعل القناديل؟ متى سنشعل القناديل؟

بهمس:

– عندما نملك أعوادَ ثقاب.

بنحيب:

– متى سنملكُ أعوادَ ثقاب؟

...

مشروب الطاعة

ساقتني قدماي إليه، مطعمٌ شعبيّ صغير؛ يقع بكنفِ إحدى المديريات العامة التي ابتلاني الله واحتجت إليها، معظم زبائنه ممّن أصابهم البلاء نفسه، وذابت نقودهم بين عبارات الشكر لتزيدها حلاوة يتلذذ بها وضّاح المحيّا ويمهر توقيعه العزيز.

ينتصب المطعم فوق عتبة جرّدها وطءُ الأقدام من بعض بلاطها، كراسيه وطاولاته وأوانيه من الحديد، جدرانه خشنة تولّاها الزمن وطلاها بشحوبهِ، يعبق برائحة الشواء التي تُثقب الرأس وتُدغدغ المعدة، وربّما هذا ما ساقني إلى هنا وليست قدماي.

طلبت من الـ "جرسون" وجبة مضاعفة من "شرحات اللحم المشوية" لإسكات ضجيج معدتي ومشروبًا غازيًا لتسهيل التهامها، دوَّن هذا في رأسه فيداه تخلوان من عِدّة الجرسون المعتادة، يلمع الذكاء في ملامحه، وبخفّةٍ يقفز من طاولة إلى أخرى، يحفظ الطلبات، يقدّمها، ويحاسب أيضًا. وكان الرجاء أنّ هذه الخفّة ستشملني أنا وطلبي، ولحسن الحظ حصل ما رَجوت.

فَركتُ يدي ونفضتُ عنها غبار "الإضبارة" بعد أن أقبل طبق الشرحات متدثرًا بأرغفة الخبز، لكن تبيّن لي بعد تعريّته من غطائه أنّ أسياخًا من الكباب هي من كانت ترقد فيه متوسدةً ببعض الخضروات المشوية، وبُغيةً في تصحيح هذا الغلط استدرتُ لأُخبر الجرسون بذلك، فسبقني بكأسٍ من اللبن أنزلها شاقوليًا على طاولتي، هنا تبدّد إعجابي به وبذاكرته الصدئة التي استعان بها في التدوين. ثم وضّح لي الأمر:

– لا يوجد إلّا وجبة واحدة هي الكباب، ولا يوجد إلّا مشروب واحد وهو اللبن!

فهمتُ أنّ طلبي لم يدوّن لا في دفتر ولا في رأس، وهذه الثقة والشاقولية في التقديم قد أشعلتا غضبي.

– ولماذا لم تقُل هذا من قبل؟

– كُلْ كبابك قبل أن يبرد.. وأنا بخدمتك، إن احتجت شيئاً آخر.

هممتُ بالخروج بعد ازدياد حنقي من خُبث هذا الجرسون وقلّة احترامه، فقال بعد أن بسَط يده وجعّد فاه:

– أين الحساب.. أستاذي؟

– لن أدفع ولا قرش.. حبيبي.

أجبته بنفس التجعّد فتسللت كلمة "لن أدفع" دون اصطحاب كلمة "حبيبي" معها إلى أُذنيّ صاحب المطعم، ذي السمع الرهيف، الذي ينادونه "المعلم" فقادته إلينا:

– خير يا أخونا؟ –بدأ حديثه دون مواربة– لماذا لن تدفع؟

– يا عمي جرسونك هذا يطلب منّي ثمن طعام لم آكله.

وأردفتُ بغضب وقد دفعتُ الطعام جانبًا:

– ولم أطلبه أساسًا.

أعاد "المعلّم" الطبق إلى مكانه وقال:

– بلى طلَبتهُ، فكلّه لحم مشوي.

ثم تابع وهو ينقر بأصابعه على الطاولة:

– ومن الآخِر.. أكلته أم لم تأكله هذا شأنك، أمّا مسألة الدفع فهي شأني.

وحوّل النقر إلى ضربة واحدة مدوية:

– وستدفع.

– ما هذا الغش!

وأشهرتُ سبابتي في وجهه ثم هتفت:

– محتالون!

فلتت منّي نفسي أكثر ولم أعُد أتمالك أيّ شيء منها، ثم شعرت بالنصر على هؤلاء الأوغاد بعد أن عاد كبيرهم خائبًا إلى وكره وقد تَوجَّس شرًا منّي ومن سبابتي، حتى هُيّئ لي وهو مطأطئ الرأس كأنما يشهق من الندم!

تحرّك شيء ما، إحدى جدران المطعم تداعت أو إحدى دعائمه بدأت تخطو نحونا، غير أنني بعد اتضاح الرؤية عرفت بأن سوءًا ما يوشكُ على الحدوث، عندما أهلّ من البعيد جزارٌ جَسيمٌ جَهِم الوجه كان قد تحرّك وخطا نحونا عَقِب إيماءةً من "المعلم" حينما كان يشهق ندمًا كما توهّمت.

الحقيقة كانت أنه لا يريد استعمال يده المعطّرة بالنقود ويلوّثها بي، واختار يد الجزار الملوثة مسبقًا بالدم والشحم والمتمرّسة في استعمال الساطور، ثم شهقتُ أنا شهقة الندم وقتما رأيتُ أنّ هذا الجزار ذا اليد المتمرّسة، التي تحمل الساطور ذا النصل المتمرّس، يتحرّكون باتّجاهي!

ولتفادي عملية التلوّث التي ستحصل وبرشاقة غير معهودة بي، استلّيت نقودي بحركة خاطفة وهرعتُ خلف الرجل المومئ، دسستها في جيبه وطبطبتُ على يديه طمعًا بغفرانه، ثم أكرمتُ الجرسون ببقشيش سخي، وعزمتُ تناول ما قرروه لي بعد ما آبَ الجزار إلى زاويته، فأفضل المعارك هي التي يمكن تفاديها، وألف حمدٍ لله أنني تفاديتها وتمالكتُ نفسي في الوقت المناسب.

ازداد الكباب جمالًا بعد سوء الفهم هذا، واقتنعتُ بكلامهم، كلّه لحم مشوي سيهوي إلى نفس المعدة، وكلّها مشروبات سترطّب نفس البلعوم، وكان اللبن خيارًا مثاليًا لبلعومي حينما تذوقته، فطعمه اللذيذ وحموضته اللطيفة جعلاني أستزيد منه كأسًا آخر هَدَّأ من أعصابي، واسترخيتُ بعدها ونعست.

تجوّلتْ عيناي بين الزبائن الجالسين حولي، ولم أرَ اختلافًا بينهم إلّا في سُمك الأضابير و رقّ الأحذية، وشردتُ في السحن الباردة التي لم تُبدِ أي استغرابًا لِما نشب، كأنه أمر اعتياديّ ونشوبه مع الزبون الجديد ليس منه بدّ، ومن الواضح طبعًا أنّ خبرتي الشحيحة في مطاعم كهذه هي من أوقعتني في مأزق كهذا، والحديد الصارخ في وضوحهِ والنظرات الحادّة التي يبديها الجميع لم تكفِني

للاستدلال على "البروتوكول" المتّبع هنا، الذي يُلزمني إن دخلتُ هذا المكان إظهار الرضى على وجهي دائمًا، حتى لو كنت أحمل بغضًا ما في داخلي، والقبول بما يمليه عليّ قانون "المعلم"، حتى لو تعارض مع كل معاني الحرية المطبّقة في المطاعم الأخرى، ذات العتبات الرخامية والجدران المزخرفة، والتي حين تتناول طعامك فيها لن ترى جزارًا.

ينبغي لك كزبونٍ شريفٍ هنا أن تكتفي بالنظر إلى صحنك والتهام ما فيه دون استشاطة، وأن تُبقي كلمات الشكر تغرد في فمك وانحناءات التبجيل على هذه المأثرة حاضرة بعد كل لقمة تبتلعها، رغم أنك دفعتَ ثمنها مسبقًا.. مع بقشيش.

ومتى ما شعرتَ برفعةٍ ما وتجاوزتَ الحدود وعزفت حبالُك الصوتية خارج المقام، يتحركُ باتّجاهك المايسترو ملوحًا بساطوره، فيُصيبك بمجرّد أن يشدّ بعض عضلات وجهه ويعبس "ارتكاس وجداني" (كما يسمّيه علماء النفس) وخوف وخَرَع (كما نسميه نحن)، وخَشيةً من أن يشدّ عضلات أكثر، ويقتلعُ منك مصدر هذا النشاز، تلتصقُ بمقعدك لا تقوى على الحراك، ولا تعلم أهو خدرٌ ألمّ بعجيزتك أم رهبة الموقف أثقلتك، لكن ما تعلمه جيدًا هو

تمنّيك أن تُلدغ بصفعةٍ قوية على قفاك تعلّمك بأنّ كل ما سبق ليس إلّا لقطات من كابوسٍ مقيتٍ انسلّ إلى خيالك... وهذا ما حدث!

أحدُهم قال:

- اِنعره قليلًا.

فتلقيتُ عدّة لطمات وركلات.

أحدٌ آخر:

- رشه بالماء.

فأُغرقت بماء وبُصاق وشتائم.

هذه هي الطريقة الرائعة التي أيقظوني بها الجماعة هناك بعدما سهت عيناي قليلًا، ولم أعرف ما الخطيئة التي اقترفتها واستدعت كل هذا الضرب والبلل إلى أن بدأت حاسة السمع تعمل مجددًا وذهب صدى الكفوف منها، فخاطبني "المعلم" في توتّر لم يبدِه في قضيّتنا الأولى:

- منذ دخولك مطعمي وأنت تتراذل، لن آكل ولن أدفع ولن ولن، والآن تتفوه بهذه التفاهة.

اللبن كان فعالًا أكثر مما ظننت، فبعد أن ابتدأ يومي بالمشي والركض لعدة ساعات في ردهات المديرية ثم امتلأ جوفي به وبأسياخ الكباب، كان النوم خاتمةً متوقّعة، وكانت "الإضبارة" خير وسادة لذلك. سألته:

- أقلتُ شيئًا خادشًا للحياء لا سمح الله؟

- يا ريت!

وزادت تجاعيد وجهه بروزًا وتنكّس حاجباه قبل أن يتابع:

- بل قلتَ شيئًا خادشًا للحياة.

بعد أن توسّعت رؤيتي لاحظتُ بأنّ المطعم خالٍ تمامً من زبائنه، والذين أمامي هم جماعته فقط، ولعلّ الجميع قد فرّ عندما هلوستُ، خوفًا من أن تُخدش حياتهم.

- وماذا قلت؟

سألته وعيناي تتأرجحان بين الوجوه الموحِشة، مظهرةً مدى "الارتكاس الوجداني" الذي حلَّ بي.

اقترب منّي، وشكّل بكفّيه الغليظتين ممرًّا زفر عبره في أذني:

– حرّية.

ثم انهار الممرّ واستقام الرجل، وصرخ طاردًا بي إلى الخارج، متوعّدًا رجلي بالكسر إن دعستُ مرّة ثانية عتبة مطعمه، وحين اعتزمتُ التلفّظ والدفاع عن نفسي، بوغِتّ بيدٍ قبضت على ظهري، تناثرت لبأسها كلماتي، فارتفع جسمي وسَفُل شأني!

وفي الحقيقة إنّ ما أنساني حينها ألم تلك القبضة وكل الأذى الذي لحق بي هو فرحي الكبير عندما مشيتُ على رؤوس أصابعي، كراقصي الباليه المحترفين، لطالما تمنّيتُ فعل ذلك مثلهم لكنّي وفي كلّ مرة أراهم فيها أكتفي بحكّ كرشي متمنيًا حدوث معجزة تخلّصني منه لأمتلك رشاقتهم، وهأنذا أفعلها وكرشي متخمٌ بالكباب. وما زاد الأمر روعة والذي كُدت أن أقهقه بسببه هو أنّ الجزار تعامل معي بيديه الفارغتين فقط.

وأكملتُ رقصي على ايقاع الشتائم والصفعات التي نال الجرسون قسمًا كبيرًا منها لأنّه سمح لحلمي أن ينطق هذه الكلمة كاملة، ولم يسحقها من أول حرف، ثم وصلنا الباب، وقُذف بنا بعيدًا، أنا وإضبارتي وحُريّتي.

لم يمضِ كثير من الأيام حتى ألّمت بي ظروف أعادتني إلى تلك المديرية،

وعند خروجي منها مررتُ قبالة المطعم سابق الذكر، لفتت انتباهي عبارة جديدة خُطّت على واجهته الحديدية تقول "يُمنع شُرب اللبن منعًا باتًا". فساقني الفضول هذه المرة لأعرف مدعاة هذا المنع، أرخيتُ طرف رأسي بحذر للداخل فكان الجزار برُكنهِ و"المعلم" قابعً خلف طاولته والجرسون قد أُستُبدل بآخر... غَمزتُه فخرج، وكان في منتهى الصدق والوضوح.

– لماذا كتبتم هذا؟

– بصراحة.. أستاذي، لقد قيل لي إنّ أحمقًا قد نام هنا بعد شربه للبن، وحصلت مشكلة كبيرة لحماقة قد تفوه بها.

– وماذا تقدمون إذن مع الكباب؟

أجاب الجرسون بعد اعتدال:

– أستاذي، لكي تبقى اليقظة متوقّدة في أذهان الزبائن؛ أصحاب الحلم الواحد، وتجنبًا لظهور مثل ذلك الأحمق، ارتأى "المعلم" بتعديل وجبته الواحدة، فمنع اللبن نهائيًا واستعاض عنه بمشروب.. "الريد بول".

ثم اجترع من عبوة يحملها بيده جرعة عظيمة، توقّدت اليقظة على إثرها، وأرخت ظلالها حول عينيه!

جرعة سماءٍ صافية

جزمة ثقيلة تضرب خاصرة الباب، فيتنازل لها عن مصراع متين الهيئة لم يُفتح بذل مماثل من قبل، وتُزاح فرشاة الرسم عن مسارها كرد على فعل غير ودود، وفي لحظة تمتلئ الحجرة برائحة زنازين تفوح من رجال شرطة غلاظ الأطراف، كبيرهم يهتف بصوت جهير كأنه يخاطب سكان العالم:

- هل دخل الهارب إلى هنا؟

ثم يتابع على الفور:

- لا تحاولوا التستر عليه، إنه مجرم خطير.

وقبل أن يتمكن الرسام من التقاط زمام أموره المتراخية لأجل التفكير بالإجابة وطرحها، ينحو عنق كبير الشرطة برأسه نحو اللوحة القائمة أمام الرجل، يبدو أنه يلاحظ فيها ما يثير انتباهه، يتقدم إليها بضع خطوات فيرى عن قرب حاكم المدينة حاضرًا بكل وقاره وهيبته، لكن خط أحمر يسيل من طرف ثغره، يتزعزع الثبات في أمارات وجه الكبير، ويتضرج بالغضب، ثم يسأل باستنكار عن هذا الخط، يجيب الرسام في خوف من موقف لم يتهيأ له:

-كنت أهم في وضع بعض اللون الأحمر على الشفتين، لكن من فزعي وفزع فرشاتي صار هذا الخط.

عينا الشرطي المشككتان تهصران الرجل، ثم تتفحصان اللوحة بعمق، وحينما يغير منحى رأسه تصدمه لوحات كثيرات للحاكم متوزعة في جوانب الحجرة، ثم لا يتوانى أن يأخذ الرسام واللوحة المريبة ويتوجه بهم نحو قائد الشرطة، من دون أن يكمل التفتيش عن المجرم الخطير.

لا يستغرق زمن انتزاعه من بيته وحشره في مؤخرة السيارة أكثر من الزمن الذي تستغرقه رمشة العين، لكن اللوحات والألوان والجدران وباب البيت يبدو لها أنه يلقي عليها نظرة أخيرة تكرارها بات رهن هؤلاء الأشخاص. ما ابتدأ بمجهول، آخره مجهول.

الأجواء في مكتب قائد الشرطة تكون بعيدة كل البعد عن الراحة المرجوة خلال مكوث الرجل في مكان مملوء بظلام وبشر غامضي النيّة، سنا القمر يحاول التسلل إليها لكنه يواجه ستائر معتمة تمتص كل نور، والنور الوحيد فيها خفي المصدر، يكفي فقط لدهن الجباه وأرانب الأنوف ببعض البريق الكئيب، يقول قائد الشرطة من خلف مكتبه المكتظ بالأوامر، بعد معاينته اللوحة وسماعه تفاصيل الحادثة:

– هذا أخطر شيء يمر علي.

– ما الذي يمر عليك؟

يسأل الرسام بعدما تغمره هواجس كثيرة، فيوجه القائد إصبعي اتهام يخالها الرجل بندقية تصوب نحو طيور تحلق بين عينيه، ويقول:

– اللون الأحمر الذي يسيل من ثغر الحاكم دليل زعمك بأن حاكمنا مصاص دماء.

يكون القول قاسي كصخرة تطحن رأسه والطيور دفعة واحدة، يعيد ما قاله للشرطة في المنزل بكلمات متوترة غير رتيبة، ويحاول أيضًا الاحتماء خلف بقية اللوحات الجميلات الخاليات من الدم، يؤكد الكبير تلك الأقوال المدافعة، يتساءل القائد بشك:

– لماذا ترسم الحاكم بهذا القدر؟

يُسبل الرسام رأسه وهو يجيب:

– يجب أن أبقى خائفًا.

– لماذا يجب أن تبقى خائفًا؟

– كيلا أخسر يدي الثانية.

ويأخذ كم قميصه الفارغ ويلوّح به، ويمضي الزمن على يد ممنوع لها أن تُدفن في مقابر العامة، وإنما في حفرة من حفر الخائنين، ويستمر نحيبها طويلًا إلى أن تذوب ويظهر بدلًا عنها نبات أخضر، يتنفس هواء ثخين يصيبه بنعاس ينام على أثره من جديد. ويقهقه قائد الشرطة طويلًا، ثم ينهض ويتوجه ببطء يحمل معه ألم احتمالات ليس لها نهاية، يربت على كتف الرجل ذات اليد، يقول بهزء:

– عد إلى منزلك، وتابع الخوف إذن.

□ □ □

يجلس على طرف كرسيه ويقفل رأسه بيديه منعًا من هروب أي شيء. يختل توازن إثر توتر يصيب قدمين. تتدحرج علبة زجاجية من علب الألوان على طاولة صغيرة بقربه، فيصدر عنها صوت قلق كأنما هو صوت تحطيم عظام تبتلعها الأرض من قبل. تهوي العلبة، تنكسر وتتناثر شظاياها على أرض ملطخة بألوان الحاكم، ثم تليها علبة أخرى، وأخرى، فيرفع رأسه من بين يديه ويلتقط العلبة الأخيرة قبيل انتحارها، لون حبرها كلون حبر اللوحة التي

عوقب عليها ذات يوم ببتر اليد. يشتاق. يحنُّ للرسم بها. مؤلم حد الساطور. يقف أمام جدار خال لم يعلق عليه أي شيء، يغمس فرشاته في الحبر. يصيبه وخز في رأسه جرّاء انبثاق صور قديمة. ترتعد يده، ثم تقسو، وتقسو القدمان. يهجم نحو الجدار ويطعنه بالفرشاة. يشق صمته بجروح كثيرة فينزف زُرقة واسعة فيها هواء بارد يداعب جلده الجاف. يجثو على ركبتيه وهو يحدق صوب لوحته الكبيرة، يصرخ بتوسل:

– خُذيني إليكِ. لم أعد أحتمل هذا المكان.

يشعر وقتها أن اللوحات المتشابهة تكبر لتغطي الجدران، تضيق الدنيا بشكل خانق. يعود صوت تحطم العظام يهدر من تحت الأرض. ومن ثم يرفع العلبة إلى فوق. يصرخ من جديد:

– أنا قادم.

وبحركة واحدة يفرغ ما يتبقى من الحبر في جوفه، ويرتمي بعدها على الأرض، يرتفع صوت قهقهة القائد، يسيل الدم من ثغر الحاكم في جميع اللوحات، وتسيل من ثغره سماء صافية.

جدل على هامش اللونجا

«يقولون»

– يقولون إن جيوبنا الخاوية ستطفح قريبًا بالنقود.

– جميل، وماذا يقولون أيضًا؟

– يقولون إن بطوننا الخاوية ستطفح قريبًا بالطعام.

– جميل، وماذا يقولون أيضًا؟

– يقولون إن شوارعنا الخاوية ستطفح قريبًا بالنور، ويقولون أيضًا إن مدينتنا الخاوية ستطفح قريبًا بالحدائق.

– جميل، وماذا يقولون عن أفواهنا الطافحة؟

يسقط الرجل على الأرض وهو يمسك عنقه. يصارع اختناق مباغت. لا يتمكن من الإجابة على السؤال الأخير.

نهود الأحلام

لطمتنا ألسنة النار وظلّت تلطم، حتّى استقرينا فوق أرضٍ منحدرةٍ تهزأُ بالعابرين لوسعها، أطرافها مُترامية عند ذيولِ مدن لا ننتمي إليها، واحتضنتنا خيامٌ مبعثرة عليها، هي في شأنها منّا على احتواء، ونحن في شأننا منها أبدًا على امتنان.

المطر ما انفكَّ يزداد، وفي الخارج صراخ امرأة عالٍ. جمع "العم" ما لديه من أغطية ووسائد وأجلَس فوقها الطفلين، لرفعهما ما أمكن عن الأرض. فبعد انشقاق السماء غارت علينا المياه من كل اتجاه، وانسلّت بلؤم أفعى من كل ضعف في حدود الخيمة، ونحن نتفاجأ دائمًا حينما تُمطر، أن للأفاعي جحورًا كثيرة في حدودنا.

كنتُ في خيمته للسؤال عن أمره، رجلٌ في نهاية عقده السابع ولديه طفلان لا يتجاوز عمر كبيرهما عدد أصابع اليد، صاحَ وهو يضمّهما بذراعيه:

– إكرامًا لله، هلّا خرجت إلى تلك المرأة، صُراخها مخيف.

لم أتوقع أن السيل الفائض من المطر بذاك العتوّ، وبتلك الغطرسة. ملابس وأوعية وكراتين تُجرف بهمجية، كأنها تُرحّل بترادفٍ إلى قعر البريّة العطشى. هذا فقط ما ميزتهُ فظلام ذاك المساء لا يسمح برؤية الكثير.

أضواءٌ بأيدي حائرة كانت تتجمع قرب مصدر الصراخ، وعائلتي في خيمتنا عند الجهة الأخرى. الحال كانت صعبة وحرجة وعليّ اختيار وجهة واحدة لا غير. لارتباك الخطوات وتردد القرار انزلقتُ، وأظن إن الجميع كان ينزلق، فغمر ما نالهُ عباب السيل مني، لكنّي بقيت رافع الرأس شامخهُ، في فمي ضوءٌ كشافٌ صغير حافظت عليه من السقوط، ويداي ترفعان سترتي للاحتماء من المطر. والخوف على تلك الأشياء، وحدها، كان السبب في شموخي.

دميةٌ مصنوعة يدويًا من قطن وقماش –تشبه جميع الدمى التي هناك– كانت تجري بالقرب مني. خُيّلت لي فرحة الطفل الذي كانت بين يديه، قبل أن يسرقها منه السيل المتمادي في غيّه، وكيف ستضحك عيناه ويشرق وجهه حين يراها من جديد، فالتقطتها لأعيدها إليه بعد انتهاء هذه المحنة وإيجاده، فاسمه كان مطرزًا عليها، مثل جميع الدمى التي هناك.

لقاؤنا الأول أنا و"العم" كان عند استلامنا لصندوق المعونات الأسبوعي قبل عدّة أيام، كان يحمله تارةً ويستريح منه طورًا، فساعدته في حمله.

– أين أبناؤك يا عم؟ لماذا لا يتولّون عنك هذه المهام؟

سألته وكنّا وقتها قد وصلنا إلى خيمته، وقد بدا التعب عليه من مقاساة المشي، ومن اعتنائه بالطفلين طوال الطريق، قال بحسرة:

– جميع أبنائي سافروا إلى بلادٍ أخرى، ولا أحد منهم هنا.

– وبناتك؟

– ولا بناتي.

– أنت وحفيديك فقط!؟

تظاهر بانشغاله في نفض غبار الطريق عن ثياب الطفلين، وفي الأثناء أجابني بكلمات قليلة حاسمة:

– ليسا حفيديَّ، شكرًا على المساعدة.

كان قد بدا عليه الضيق منذ سؤالي الأول، تجنبَ النظر إلى عينيّ لِئلّا يستمر الحديث، فصرفتُ عنّه فضولي وغادرته.

□ □ □

كنت أخطو بحذر مسايرًا السيل نحو خيمتنا، بصحبةِ التلطّفات التي كانت تنفجر من كل اتجاه. هذا ما قررته وأقدمت عليه. حاولت تجاهل صوت المرأة الملتف حولي، هربًا من تأنيب الضمير، لكن صوتها كان مُهلكًا، فهو أشد من أن يُحتمل وأبعد عن أن يُنال، ففشلت في تجاهله واستمر في إهلاكي.

ما الذي مرّ من هنا!؟ يفرّ مني هذا السؤال، فيروح مسرعًا عبر الطريق العريض، المعبّد بآثار الأقدام، والمملح بالعَبرات، والذي يفصل بين صفوف الخيام المتشابهة، المتراصّة على نحو ما. ثم يدخل السؤال إلى الصفوف، ويدخل إلى الخيام.. فيختفي، مثلما تختفي فيها كل الأسئلة. يلمع البرق وينثر وميضه على المكان، فأرى من حولي خيامًا أُقتُلعت ولاذ أصحابها بقمم الروابي القريبة، وأخرى مازال ساكنوها يعانقونها، فهي مأواهم الوحيد بعد أن عضّهم الزمان ورماهم فيها.

المطر القوي يضرب وجهي مرةً، فأنكّس رأسي وأقف، ثم يستقيم فأعود لشموخي، كأن السماء تتفلت من نجومها، أو الأرض تتفلت مني، فتحيطني دفقات المطر كالشهب النيّرة وتذيبني في ظلمة نفسي.. لا لا ليس الآن! وما بين الانتكاس والشموخ، تبقى الريح الثائرة ترجو سقوطي، ويبقى البرق يلمع مع الصراخ، ويخفت مع صمته، أشعر كأنني أهرول في مكاني وأغرق.

اختل توازني مرّة أخرى، بعد ارتطامي بأحد الحائرين الذي أتى هائجًا من جهة صراخ المرأة، سندنا بعضنا ولم نسقط. سألته عن حالها وعن سبب اضطرابهم، فنَطق بصوت خائر، وعيناه ترصدان المكان:

– طفلها..

أصابتني الرجفة في الحال، وتسمّرت في مكاني، لم أكن أحتاج لأسمع أكثر حتى تتلوّى ذاكرتي بي وتلسعني برؤية جميع الأطفال الهالكين في أعوام الفناء الماضية. ربما بدأتُ أرجف من قبل، منذ أن أخبرني "العم" بقصة الطفلين اللذين يعيشان معه، لهذا، عندما نطق الشاب بتلك الكلمة، اصطفقت أسناني ببعضها وصارت تقطّع الكلام، وترمي بقاياه بيني وبينه بفتور:

– طفلها.. ما.. ما به؟

توقفت عيناه عن الرصد وثبتهما نحوي، أحسّ بارتجاف جسدي وارتخائه، خاف أن يُكمل خبرهُ، فاستنطقته:

– وبعد؟ تابع.. ما به؟

قال وهو يعتصر ألمًا من لفظ كل كلمة، وكأن سهامًا كانت تصيب ظهره وتجتازه:

– تعثرت أمه في السيل وفلت منها، ولم تلحقه فضاع في العتَمة.

صراخ المرأة صار أوضح والتفافه حولي أشدّ، أخذتُ الشاب من تلابيبه وصحت وأنا أتلتل به:

– تابع.. كيف ضاع؟ لا تسكت، تابع.

– لكننا نبحث عنه، وسنجده.

– تابع.. تابع..

صحت وأنا أتلتل به أكثر.

صار الشاب يبكي وهو يقول بصوت عال:

– سنجده، والله سنجده.

كل صرخة منها كانت تزيد من رعشتي، وتفصل أطرافي عني. رأسي أصابه صداع باردٌ، وسترتي طارت مع هبوب الريح واختفت. تركت تلابيب الشاب، ثم سلّمت نفسي لغضب السماء جاثيًا في السيل مستكينًا لكل ما يقرر، فليأخذني أينما يشاء، ولتكن نهايته نهايتي، قيل إن العواصف الشديدة لا تعبأ بضعيف

الحشيش، بل تحطم طوال النخل وعظيم الشجر، لكن عندنا تتغير القوانين وتغفو على أنغام عويلنا الأعراف، فيتحطم كل شيء.. حتى الحشيش.

لا لا ليس الآن، مسح الشاب دموعه ودموعي.

□ □ □

احترتُ في أمر "العم" وقاومت ما استطعت، لكن فضولي جرّني مجبرًا إليه، عند المساء المتسلّط، الذي أنهى محاولات الشمس المتوارية خلف السحاب بالظهور وهبّت فيه تلك العاصفة. فباح لي قبل هبوبها وحكى:

– قبل أن آتي إلى هنا بعشرة أيام دوى في القرب منّا انفجارٌ كبير، كنتُ في بيتي نائمًا، فقذفتُ من على سريري وكل شيء حولي يرتعد.

طلّ المطر بخجلٍ، آنئذٍ، وقطراته أخذت تستفز بصوت سقوطها المتأنِّ على سقف الخيمة هدوءنا، وكانت أنفاس "العم" تتسارع بتسارعها. تابع كلامه:

– الحارة التي أسكن فيها ضيقة وبدت حين نظرت إليها من نافذتي أضيق، دخان وغبار وأصوات ركض وزمامير، هي بضع لحظات حتى صار كل شيء. ميّزت بين كل هذا صوت جارتي العجوز، كانت تهتف باسمي ثم بدأت تضرب الباب. قواي منهارة والباب تزداد معاناته أكثر من ضرباتها، فحَبوت

بضع خطوات على يديَّ وركبتيَّ، وصرت أسحب نفسي بعقبي قدميّ وأزحف. إحدى الجارات أودعت عندها طفليها ريثما تُحضر دواءً ما من صيدلية في أول الشارع، وبعدها بدقائق حدث الانفجار. والد الأطفال مفقود منذ مدّة والعائلة غريبة عن الحارة، فلم تجد العجوز غيري لتطلب إليه الخروج والبحث عن أمهم.

ازداد استفزاز المطر وازدادت سرعة أنفاس "العم".

□ □ □

أحدهم صاح "وجدته! " وصار يلوّح بكشّافه. زفر الشاب الذي معي زفرة ارتياح عميقة والصراخ توقف. فنهضت مغيرًا مساري من دون تدبير، وناحرتُ السيل مبتعدًا عن خيمتنا، وعن قراري.

من قبل، كنا حين نمشي في السيل نمشي بحذر لاجتناب الحُفر الزلقة، وكأننا عابرون في حقل ألغام خطير، لكن لحظة إيجاد الطفل، الخطوات أصبحت أوسع والخوض في هيجان السيل أعجل، فلتنفجر الألغام، ولنتشظَّ، ولنسقط، ولنغرق، لا يهم، فبعد أن تم تأويلنا إلى منكوبين لا معنى لهم، وبارحنا أرضنا، لم نعد نخاف إلّا على الأطفال.

الأم سبقتنا.. كان الذعر يأكل من وجهها المصفرَّ، والماء ينزُّ من أطراف ثيابها المهلهلة. الرجل ينفخ في جوف الطفل مُنقطع النفس ويضغط على صدره، وأيٌّ من يصل كان يوجّه كشّافه إليهم ويصنع من سترته مظلة فوقهم.

□ □ □

- لا أدري كيف وصلت إلى مكان الانفجار (تابع "العم" بعد أن أطرق لحظة يتذكر) تدفعني جدران الحارة من جهة وتتخبط فيَّ الأكتف الثقيلة من جهة، وأنا بالكاد أتحرك، حتى وجدتني في وسط امتداد فسيح لم أعرفه من قبل، يغمره دخان متماوج بقسوة مع سطوع الشمس، لاحظتُ وقتها السواعد المحمّلة بالناس، وسمعت الحناجر التي تناجي ربها. لم أرَ الصيدلية. أكوام الحجر كانت تملأ المكان، تتراكم لتصنع جبالًا بلون الرماد، مثل لون كل شيء كان هناك، بعضهم كان يرفعها وينادي، وبعضهم كان يرفعها ويخرج من تحتها الأجساد، من دون أن ينادي. على سفح إحدى الأكوام القريبة مني، رأيت طفلة مدمّاة ساكنة، مرمية وحدها، حملتها من فوري بما فَضِل عندي من حَيل، فهتف بي أحدهم وهو يركض: إنها ميتة، ميتة، اتركها وانقل من ما زالت فيه روح.

ثم أغمض "العم" عينيه وسكت، وأخذ يفرك أصابع إحدى يديه ببعضها، كأنه يتحسس ملمس شيء ما. فسألته:

- وأم الطفلين؟

مال نحوهما وأجاب:

- كانت مع المتروكين، والطفلة التي حملتها هي أختهم الثالثة. وللآن، ما زلت أشعر بحرارة دمها الذي غطّى يدي.. أتصدق؟ كان يحرقني حينما تركتها ومضيت.

ثم تدحرج دمعه الصُلب عبر تجاعيد وجهه العميقة، حتى انتهى وغاب في شيب لحيته.

- نعم، لقد تركتها ومضيت.

اهدودر المطر.

□ □ □

واصلَ محاولاته، كان يقلبه ويضرب على ظهره وعلى خديه، ثم ينفخ فيه لكن لا جدوى. أحنت الخيبة رأس الرجل، وطأطأته فوق الطفل البارد. فانتفضت الأم "غيث.. غيث.. " وأخذته منه. انتشر صدى اسمه في رأسي

وارتجفت يدي التي ما زالت تحمل الدمية، اسم غيث هو ما كان مطرّزًا عليها. رفعتها بتلكؤ وكأنني أرفع حملًا ثقيل، وقدّمتها للأم مثل طوق النجاة الأخير أو المحاولة الأخيرة، قبل أن تتلاقى عقارب الساعة وتحين لحظة الصفر ويموت الجميع، فخطفَتها من يدي فورًا وأخذت تحركها وتمايلها أمامه من دون وعي:

– ها هي دميتك يا غيث، أتراها؟ خذها، غيث.. أتريد أن تضمها وتنام؟ لمَ لا تجيب؟ أنا أمك لا تخف، أتراها؟ غيث.. غيث..

ارتفع صوتها أكثر وزادت حُرقته وصارت تُعاني في ابتلاع شهقاتها. دنت من صدره لتسمع ضربات قلبه الصغير، مثلما سمعتها أول مرة في يوم ولادته، حينما انتصبت السنابل واخضوضرت المروج بعد جدب وارتوت عيشتها فأسمته غيث، لكنها لم تسمع شيئًا، ولم يبكِ مثلما بكى، فجلجلت بصيحة أنهكت أذن كل من سمعها، ودوت في كل أشلاء المخيم، الفضاء أطبق بسمائه الباكية علينا، والسماء تلبّدت سحبها أكثر وصارت تئنُّ حزنًا على الجسد اللين الهادئ، وعلى صياح الأم الذي ظلّ ينغرس في صدورنا كالخنجر الملتهب، ويحرق أفئدتنا ويقتلعها، إلى أن بُحَّ الصوت واختنق، وماعت الأقدام في الوحل الداكن، وطارت السُتر جميعها مع الريح، وابتلع طيش السيل الذي بلغ المدى

كل الكشّافات، صار المطر أثقل والسواد أبشع، ظلّت تهدهد الطفل وتناغيه بالدمية علّه يصحو، والرعد يرد عليها بصوته المخيف، وظلّت، تشد شعرها وتولول.

عادت روحه سريعًا إلى السماء، وبين يديها صارت تحمل دميتين. لم تفلح بمرادها قط، لم تفلح، فعَقب فقدانها لزوجها كان عزاؤها الوحيد أن تنجو بطفلها، ليضيء ما استطاع حُلكة الأيام، لكنه انطفأ باكرًا. وكذا حال "العم"، لولا الطفلين لبقي ومات في بيته، لكنه وجد نفسه مسؤولًا عنهما بعد نزوح كل أهالي الحي، وجاء ليجد من يحمّله أمانة الاعتناء بهما بعد وفاته.

يبقى الجميع مؤمنًا بفُرجة قريبة، والأنوف تُبشّر دومًا برائحة سعيدة آتية من مائدة ما، لم يصلها البارود. ولأن أرجلنا مغلولة بأيدي اليأس وأنيابه، تبقى المائدة في مكانها وأيضًا نحن نبقى، فنرسل إليها الأطفال، فإما أن يجدوها ويعيشوا، وإما أن يغرقوا في سراب الطريق.. وحتى الآن جميع أطفالنا كانوا غرقى.

تلك الليلة كانت طويلة وكأن لا نهار بعدها. توقفت العاصفة مخلفة وراءها أضرارًا كبيرة وفوضى عارمة.

طين الأرض كان لزجًا مثل ضحالة القهوة، والخيام المتفرقة فوقه كانت ترسم بنصوع بياضها طالعنا التعيس، فيخبرنا بأن الذي مرّ من هناك هو أحد الأهوال المقدّرة، وأن القيم المتسافلة قد تطغى على القيم المتسامية، مثل الغيث الذي نزل والغيث الذي ارتقى، وأن رجل السلام يموت دومًا في الحرب، ورجل الحرب لا يموت إلّا في السلام.

أدبر الليل ولم تجيئنا الشمس ولا نملك أي مصدر للدفء. أجسادنا تُساط بحبل البرد القارس، وجميع ثيابنا مبللة. حفرنا قبرًا للطفل فوق رابية صغيرة لا تبلغها السيول، وانتزعناه من صدر أمه وواريناه ترابها، ثم بدأ الجميع بإصلاح الخراب الحاصل، والأم بقيت وحيدة تعانق القبر، وتغني ما كانت تغنيه لغيث قبل أن ينام.

ساءت حالة "العم" بسبب البرد الشديد وأصابته وعكة صحية قاسية، لم يعد يقوى على ملاعبة الطفلين ولا على حملهما فوق كتفيه كما كان. فلقد احدودب ظهره كثيرًا، واصفرّت من المرض عيناه الطيبتان، اللتان كان يغطيهما بكفيه كي لا أرى دمعهما، في الليلة إياها، حين قال لي في ختام كلامه قبل أن تداهمنا أفاعي السيل اللئيمة:

– كلما اقترب همس النهاية منك قل "لا لا ليس الآن " واستمر، حتى لو غدا أسمى ما تشتهيه لقمة طعام تسندك، وسقف يأويك. استمر، فصدقني هي بضع لحظات حتى يتغير كل شيء (وأضاف متهكمًا ويداه تشرحان في الهواء ما يقول، وتمسحان دمعه أيضًا) تعال لنتكلم بصراحة، لديك حرية الموت هنا وحق الاختيار، فلمَ الضيق؟ لديك حرية الإيمان بماضيك وحق الكفر بسواه، ولديك أيضًا هذه الخيام، إنها بيضاء مقببة، وناعمة، فاستمتع بها كما بدا لك، يمكنك أن تتخيلها قبورًا للحالمين فتدفنك وتفنى، ويمكنك أن تتخيلها نهودًا للأحلام، فتُطيل النظر وتأمل.. أرأيت؟ أنت حرٌ جدًا.

إثر ازدياد مرضه جمعنا عنده أنا والمفجوعة بابنها، واقترح علينا اقتراحًا. كان على يقين بأنه في حضرة انتقاله إلى مكان بعيد آخر، لهذا أراد منّا وعدًا حاسمًا، رفضنا، وأصرّ وتعلل بأن القافلة يجب أن تمضي وأن تضع مطاياها حيث الحياة، فالبقاء المحتمل رغم مشقّته خير من الزوال الأكيد. فيه ثقة غريبة لا ندري من أين تأتيه، وما يبس فينا عاد وأورقه من جديد، رغم صعوبة الإيراق في تلك البقعة المنسية العالقة بين الحدود، التي لا تسمع حين تمر فيها سوى النحيب والأنين، ولا ترى سوى العيون الجزعة من الكوابيس التي

تجري أمامها، وحتى الذكريات، تصير فيها أوتادًا تُثبت فيها الخيام، ولا شيء غير الخيام.

صدق الطالع وأسلم "العم" روحه، وامتثلنا لوصيته. صار عندي بعدها عائلة مشوّهة تائهة، أطفالي فيها يتامى يسألون عن أمهم، أرسلهم "العم" معي عسى أن يصلوا إلى مائدة السعادة المرجوّة، وزوجي ثكلى، تسأل متى سيعود طفلها المدفون عند الرابية العالية، لتشمَّ عطره وتضمّه.. وأنا مذعور. بقيت أدعم خيمتي بما تبقى من أوتاد وأردد:

- لا لا ليس الآن، لا لا ليس الآن.

أمّا الغيوم.. فلا تزال منذرة بهطول غيثٍ جديد!

أسطوانة من العالم الثالث

وحينما يظهران في شارع تجاري خالٍ من المنازل، بملابس لا تصلح للسهر، وفي ظلام محمّل برطوبة صيفية ثقيلة، على نحو سريع جدًا يلمع ضوء في داخل محل ضخم، ينتشر أثره على سطح زجاج الواجهة الواسعة، تتغير ملامح الرجل، تقول له:

– في معارض الأجهزة الكهربائية يتركون بعض القطع مضاءة، دعاية ليلية.

لا يكون تعليقها مرضيًا لما ينشأ في داخله من فضول، يأخذ يدها ويعبران الشارع مقتربين من المحل، بخطى متئدة. بأعين متقصّية ينظران إلى عمقه. تصرخ المرأة:

– لصوص!

تخرج الكلمة حادة تشق الرطوبة والظلام، وتنحدر بعد انخفاض طاقتها حتى تتهاوى على الأرض، دون أن تنجح في دخول أذن مؤازر واحد، لكن حدتها تكون كافية ليرد عليها صراخ من أحد يركض باتجاههما:

– توقفا.

وخلال زمن أقل من ثانية ينقضُّ من في المحل عليهما، بأسلحة نارية وسكاكين تضغط على مناطق مختلفة من اللحم، ولثامات سوداء تغطي وجوه، يأمرونهما أن يصمتا في الحال، يصمتان، ويأتي سؤال لا معنى كبير له، من اللص الذكي الذي يصرخ عليهما في البداية ويكتشف بهذا الظلام أنهما شخصان:

- من أنتما.

- أنا وزوجي.

تقول الزوجة بتأنيب:

- قلت لك دعاية ليلية، ليتك تسمع منّي مرة.

ويخرج اللص الأخير من المحل يتدلى خلف ظهره كيس بحجمه، يقول وهو يتفحص الشارع بقلق:

- أتركوهما، تأخرنا.صوتٌ قادمٌ من بعيد يقترب، يخمش هدوء الليل، كأنه صوت سيارة تسير ببطء معلنة ظهورها من مدخل الشارع بعد لحظة. كتصرف عفوي غير مدروس تصرخ طالبة الغوث من جديد:

- لصوص!

تغلق فمها راحة اللص الذكي، وينتفض الزوج مدافعًا، غير أن ذراعا لص آخر تسبقانه وتسيطران عليه من الخلف، وتصدر عن الزوجين مقاومة تثير صخبًا يتصاعد، يكون من المفترض تركهما والهرب، لكن الذكي يصرُّ على أخذهما، يقول إن الرجل تعرف عليه عندما ارتفع اللثام كاشفًا عن وجهه، فيغفو الزوجان عقب ذلك في سيارة بلا نوافذ، بتأثير ضربتين من عقبي مسدسين.

وبعد زمن يكفي للخروج من الشارع والمنطقة ووسط المدينة، تتوقف السيارة أمام استراحة سفر مهجورة، تطلُّ على شارع قديم، وفي لحظة يرتفع باب عريض، كثغر وحش يتثاءب، تدخل السيارة على مهل.

أول ما يسمعانه حال ما يبدأ الوعي بالنمو في رأسيهما، صوت عال يخرج من حلقوم عريض، لم يكن معهما من قبل، صاحبه يقول بسخط، للذين كانوا معهما من قبل:

- لأي شيء أرسلتكم؟

يبدو السؤال غريب، بالنسبة للزوجين ولغيرهما من المستقيمين، إذ لا فرق بين الجرائم، لكنه كان جديًّا فيما يقول، حتى أنه ينتظر إجابة، وتصله بنبرة ذل:

– للسرقة يا زعيم.

صوت كف.

– حمير! ارموهما بعيدًا.

هذه الجملة تكون كافية لعودة الوعي كاملًا إلى رأسي المغمي عليهما، المشكلة ليست فيمن وجه له هذه الكلمة "حمير" سواء هما المقصودين كانا أم اللصوص، لكن مسألة الرمي بعيدًا هي من أيقظتهما.

تقترب منهما أقدام مغتاظة متوترة، ومعها ثرثرات منخفضة غير مفهومة، أيدٍ شديدة لا تعرف الاحترام ترفعهما، وتمر عليهما متجولة في طيّاتهما بخبرة مكنتها من التقاط كل شيء، وبينما تمر تكون غير بخيلة على الإطلاق بوكزهما، كأنها تنتقم من صاحب الحلقوم العريض، الذي يُعرف أنه الزعيم. يفوه الزوج برجاء:

– أين سترموننا؟

– اخرس؟

– أين نحن.

– اخرس.

– حمير!

يتأوه الزوج متوجعًا من ضرب عنيف، وشتائم شائنة تتجاوز ما قاله بكثير، يحدُّ صوت الزوجة من جديد، وتعود على إثر ذلك مجموعة أقدام أخرى، الزعيم يأمر:

– توقفوا.

لا يتوقفون فورًا، لكن بعد انتهاء شتيمة طويلة لا تنسى أحدًا من أفراد العائلة.

يقول أحد الضاربين مفسّرًا:

– نعتنا بالـ.

يسكت قاطعًا حديثه، يبدو أن شيء ما يمنعه عن قول الحقيقة، هذا ما يجعل الزوج يبتسم بمكر، لكنه يتابع على الفور:

– يشتمك يا زعيم.

– كذاب، كذاب، أشتمهم هم.

يصيح الزوج، ويحرك رأسه متجنبًا ضربة متوقعة على صدغه، لكنه يُدرك حينها أن أحدًا لا يمكنه التصرف دون تصريح من الزعيم، وعلى ذلك، يتابع:

– يا زعيم، لم أفهم بعد ما الذي يجري هنا، لكنّي فهمت أنك إنسان لا ترضى بالظلم، لقد أمرتهم أن يرمونا بعيدًا، لكنهم سرقوا كل ما في جيوبنا وأهانونا، لا أتكلم هنا عن السرقة والضرب بالتحديد، لكنهم خالفوا أوامركم.. صدقني، كل نقودنا لا تكفي ثمن حذاء.

وتقول الزوجة بصوت يعصره النشيج:

– هم الذين يشتمونك يا زعيم.

من المفاجئ حقًا ما يفعله الرجل، يصغى إلى آخر كلمة تُقال، دون أن يكون عدائيًا معهما، على عكس المعروف عنه أنه لا يحب الكلام الكثير، الذي يخرج من غيره، يلّوح يده باستعلاء للصِّ يريد نفي قول الزوجين، يكتم صوته قبل أن يخرج، ويكرر أمر رميهما بعيدًا بلهجة أشد غضبًا، ويعطي إشارة نهائية لإعادة ما سُلب منهما، ثم يرجع إلى حيث الأكياس.

– أين هي؟

- ليست معي!

- أعطيتك إياها!

- انظر هناك!

- هل اختفت؟

لاختلاط الأيدي وتسابقها في الضرب والنهب، ولغيرها من الأسباب.. تضيع النقود منهم، لم يمكن تحديد مكانها بالضبط، وبصوت خفيض متجنبًا سمع الزعيم، يتهامسون في الأمر، لكن شيئًا من همسهم يفلت إليه، ويعود مرة أخرى قبل انتهائه من فحص المسروقات، الزوجان يصغيان لما يحدث.

- ما خطبكم؟

- لم نجد النقود.

- أي نقود؟

- نقود المخطوفين.

يهتف الزوج:

- لقد سُرقت أنت أيضًا يا زعيم، لم أكن أتصور أن يحدث هذا.

- اخرس.

تخرج هذه المرة من فم الزعيم، ويسحب مسدسًا لّماعًا من جيب جلدي، ويلقّمه تهيؤًا للإطلاق، فيهتاجون حوله بتحاقر متلعثمين في رواية اختفاء النقود. أحدٌ منهم لا يمسكها غير ثوان قبل أن يناولها لزميله اللص، سلسلة المناولات تشكل دائرة محكمة. بعض منهم لا يزال متلثم. ويسدد المعلم لكمة قوية لوجه آخر واحد تكلم، بعد أن يسأم منهم، يُسقطه أرضًا، ويزعق في وجه الثاني مصوبًا فوهة المسدس إلى منتصف جبهته:

- أين النقود؟

لا يجترأ على الإجابة.

- سرقة تتم في مقري يا كلاب، وتشتمونني!

وتقول الزوجة بصوت يعبر كنغمة رقيقة في صخب حرب ضروس:

- أيمكن أن أتكلم معكم على انفراد يا زعيم؟

- ماذا تقولين! يهب الزوج ناهيًا. ثم يقول لهم:

- لم نعد نريد شيئًا غير الخروج من هذا المكان.

- تكلمي هنا. يجيب الزعيم.

- أرجوك، لدقيقة واحدة.

وحينما ينظر إليها مباشرة، ويدقق في تفاصيلها الأنثوية، يلين داخله قليلًا.

- إن لم تظهر النقود خلال دقيقة، سأقتلكم.

ثم يشير لأحدهم قائلًا:

- أحضِرها.

يدخل الزعيم غرفة فيها سرير وكراتين، يجلس على السرير، ويأمر الذي يحضرها أن ينصرف بحركة خاطفة من سلاحه الذي لم يزل يقبض عليه بغضب، يقول بخشونة:

- أتعرفين شيء عن الذي أخفى النقود؟

- أتسمح لي أن أراك؟

تقول هذا بضراعة تثير في نفسه حنانًا مباغتًا، فيهتز جفنيها المحمرّين بوجع من الضوء. وبعد أن تتمكن من فتحهما، يسقط السرير من تحت الزعيم، وتسقط الكراتين. ضوء الغرفة الأصفر شمس مشنوقةً فوق قمرين زرقاوين،

يلوح فيهما تحدٍ غامض يصدّه عن اكتناه ما ورائهما، تكسّرت حدود صلبة لم تخدش مرة في حياتها، وتسارعت نبضات قلب ميت، تعود إليه الحياة بصدمة من تيار أبيض شهي.

الجدال حادّ الدوران في الخارج، يقومون بتفتيش بعضهم البعض، وكل منهم يلقي باللوم على الآخر، هم ليسوا أعضاء فرقة سِرك، هذا معلوم عند الجميع، الثقة تبعد عن مقرهم ألف ميل، والشك يبقى يقظًا في عيونهم المفتوحة دائمًا، يسمعون ضحك الزوج، قبل أن يقول بسخرية:

– أما زلتم تبحثون عن النقود؟! لم أرَ لصوص مثلكم.

– أوتعرف لصوصًا غيرنا.

– غير مهم، لكني أعرف جيدًا أنه مهما يكن ليس من حقه أن يخاطبكم بهذه اللهجة، الواحد منكم قد سلك هذه الطريق المحفوفة بكل المخاطر، ليقال له لص، وليس حمار.

ينظر بعض اللصوص إلى بعضهم كأنهم يسمعون حديثًا كان يجري بينهم منذ زمن قصير، إذ في طريقهم إلى المحل يتبرّم الذكي مستاءً من رفض الزعيم

لاقتراح يصبُّ في خدمة العملية، ويجاريه في التبرّم من يسمعه، ويؤيدون بشدة أنهم يأخذون مكانهم بجدارة في قاع مجتمع الظلام، تحت مقام جميع العصابات. يتابع الزوج:

– لا يجب أن تتخلى عن كبريائك حتى لو أصبحت أفسد الخلق.

– من أعطاك الإذن بالتكلّم؟

– أنا لا أعرف شكل الاحترام الذي يكون عادة داخل العصابات، لكن على الأقل ليس في حضرتي، حتى لو كنت معصوب العينين، لكني مازلت أسمع.

– صهٍ، كفاك ثرثرة.

– وفي حضرة زوجي، امرأة!

يتوقف الرجال عن الاهتمام بقضية النقود المختفية، وتتكدر وجوههم بقدر لا يكفيه ما يقوله الزوج، بل إنه كدر مدفون في داخلهم، تحت تراب من خوف ورهبة، يزيحه هذا الرجل الذي تستمر أصابعه في لويّ مكامن أوجاعهم بكونهم لصوص، وأفراد عصابة يتزعمها لص نزق. بحسرة مريرة يعبّر أحدهم:

– يظنون أنَّ من يتخلص من قيود القانون، وقيود الأخلاق، يصيرُ حرًا يصنع ما يشاء.

يجترأُ آخرٌ:

– في كل مكان زعيم متسلّط.

يقول الزوج:

– وما الذي يمنعكم من تغييره.

يتفحصون المكان من حولهم، كأنهم يريدون ملاحقة أثر ما يقولونه، ويقوله، ليطمئنوا أن الزعيم لا يسمع أي شيء، خاصة الجملة الأخيرة. يضيف الزوج:

– أشعر تمامًا بالخوف الذي يتملككم من مجرد سماعكم هذا الكلام، رغم أنه منذ قليل، كان يضربكم ويشتمكم كأنكم عبيد له.

منذ زمن طويل سُجنت كثير من الأفكار، على الأقل لم يُجاهر بها، قناعة مزعجة ترمي نفسها كأضواء شاحبة في نواحيهم، لا تنير أي سرور يظهر على

الوجوه، هو الزعيم منذ أن وجدوه، أو وجدهم، ولسبب غير واضح هو أعلى مرتبة منهم، مفاجأتهم الأولى التي صدمتهم على نحو كبير عند دخولهم هذا المجال، أن في العصابات رُتب، وبأمر من صوت أجوف مجهول، لم يعد يطيق هذه الدنيا، يجلسون على ما يُجلس عليه، حول الزوج.

– ما اسمك؟

– رشيد.

□ □ □

– ما اسمكِ؟

– عبير. وتضيف بدلع حذر:

– لم أتخيلك هكذا.

– ماذا تخيلتي؟

يقول الزعيم، قبل أن يدهمه شعور يلومه على تصرفاته غير المسبوقة اليوم، أين هو من شأنه كزعيم؟ يحنق على نفسه لأنه فكّ لها عصبتها ورأته، ويقف مستردًّا شراسته:

– الدقيقة ستنتهي، احكي ما عندك.

– الدقيقة انتهت منذ غيابك في عيني، هل أعجبتاك؟

– أليس الذي في الخارج زوجك؟

– لم تجبني.

– وأنت لم تجيبي، ماذا تخيلتي؟

– في البداية، وبكل صراحة، تخيلتك فظيع الرائحة والشكل على نحو ما تحمله مخيلتي من صور للمجرمين، الصفة الأولى انتفت عندما مشيت ورائك إلى هنا، انبعث منك عطر أخّاذ.

تسكت وهي تنظر مباشرة إليه، كأنها تقوم بتنويم قسوته ببندول عينيها، يستحثّها على المتابعة ويداه ترتخيان على المسدس:

– والثانية؟

□ □ □

يقول أحدهم لرشيد بشيء من الشك:

– تأخرت زوجك في الداخل.

يردُّ مبتسمًا، ولا يزال معصوب العينين ومقيّد:

– أتعرفون، لم أعد أشعر أنني محتجز لدى عصابة.

– لماذا؟

تخرج من الذي سأل مغلفة بإحساس بالإهانة.

– أنتم طيبون.

– ماذا تقول؟

يزداد التغليف.

– لو كنتم غير ذلك لقتلتمونا أنا وزوجي أمام المحل، هذا ما أظنه، أو أنكم..

– أننا ماذا؟

يتوتر وينهض واقفًا على قدمين لا تخفيان عصبيّته.

– أو أنكم لا تملكون الشجاعة للقيام بهذا الأمر، القتل من دون إذن الزعيم، وعلى كل حال.. طيبون.

ويتلقى ركلة قوية من الواقف، وينكمش على نفسه حاميًا وجهه من الضرب، قبل أن ينهضوا ويفرقوهما، والواقف يصرخ ضابطًا نبرة صوته المهددة حتى لا تصل إلى الغرفة:

- إيّاك أن تتفوَّه بأي كلمة أخرى.

يعود الجميع إلى مكانه، يعمُّ صمت غير مريح، قصير، لا يلبث أن يقطعه اللص الذكي:

- ما يقوله هذا الرجل صحيح.

يجذب الانتباه إليه، ثم يقول:

- نحن مأمورون بكل خطوة نخطيها، هو من يقرر الهدف، من سيقتحم، من سيراقب، من سيقود السيارة، هذا المقيّد هو حر أكثر منّا، نحن المقيدون بحق.

يومئ رشيد برأسه موافقًا، ويقول بصوت يعيق الألم من وضوحه:

- أظنني أحمل لكم حلًّا لكل هذا، لكنّي سأبقى صامتًا، أخرسًا، فلم أعد أتحمل مزيدًا من الضرب.

لا يشعر أن أحدًا منهم يتحرك من مكانه، ولا يسمع شيء، يكون هذا في أثناء مناقشة متبادلة بين ملامح الوجوه، يغلب عليها الموافقة على منحه الأمان ليبوح بما عنده، يهمس الذكي موكّلًا نفسه عن الجميع:

- ما هو الحل؟

- أتسمحون لي أن أراكم؟

من دون تفكير يمد القريب يده ويفكُّ العصبة، في وقتها ينظرون كلهم إلى الخلف، نحو غرفة الزعيم، ويهمسون لرشيد وهو لا يزال يفرك عينيه:

- تكلم بسرعة.

يمرر نظره على المكان، كما يتخيله، قاعة كبيرة ذات فوضى، وعشر رجال قساة الوجه يتحلقون حوله، يتفاجأ من هذا العدد، لا يسمع صوت الجميع، يتأكد حينها أن كلامه يعجبهم، يتكلم:

- الحل هو التخلص منه، وقبل أن تسألوا كيف..

يخرج أحدهم عن صمته:

- لن نسأل كيف، ما بالكم تستمعون لهذا الوغد؟

– دعه يكمل.

ويشير الذكي بإصبعه إلى الجميع ويتابع:

– كلنا نتمنى الخلاص منه، لكن لم نجرأ مرة واحدة على التحدث بهذا الأمر، خوفًا من أن يغدر أحدنا بالآخر وتكون رصاصة الزعيم أسرع.

– أنا أخلصكم منه، الآن، من دون أي تدخل منكم.

يقول رشيد، ويشمل الجميع بنظرة تُظهر جرأة مخيفة، ويقول:

– أنا لصٌّ مثلكم.

تشخص إليه الأنظار مصدومة، صفعة قوية تخدّر وجوههم لدرجة أن أحدًا منهم لا ينظر نحو غرفة الزعيم، بعد هذا الكلام الخطير وبيل العواقب، ويمعنون في النظر إليه، إلى وجهه، ملابسه، جزمته، وتنتفخ عروق في الجبهة، وتحترق رقاب من الخلف، وفي داخلهم يتردد قهر روحي أليم، سريع الاشتعال، لكن لمَ ينصتون إليه، رجل يتمشى مع زوجه في شارع بقلب المدينة، ويأتي ليقول إنه لص ولديه حل لهم، لابد أنه كاذب محتال، لا يوجد شيء يستحق هذه المخاطرة، وبينما يكون رشيد يخشى هذا الصمت، يقول:

– القرار كله بين أيديكم، هذه المصادفة ستغير حياتنا جميعًا، أعدكم، لدي خطط مدروسة لسرقات كبيرة، وأنا بحاجة إلى عصابة محترفة لكي أنفذها، وبكل تأكيد لن أضعها بين يدي زعيمكم هذا، لا أريد أن أصحو ذات يوم لأجدني حمار، أو كلب.

– أعطنا سببًا لنصدقك، كيف نضمن كل هذه الوعود؟

– لم أظنك ستسأل هذا السؤال، وعلى خصرك مسدس.

ويمررون أيديهم على أسلحتهم، خشية من أنها قد اختفت كما النقود، تكون في مكانها، يطمئنون، ويتشاورون فيما بينهم بخصوص هذه المصادفة التي ستغير حياتهم، والتي ستجفف صديد جراح قديمة، غزيرة النزف، حياتهم متغيرة، وقد تنتهي في أي لحظة، أو تبدأ، هذا ما يدفعهم إلى أن يخاطروا أكثر من أي أحد آخر، وفي حقيقة الأمر، الحقيقة التي يعرفها جميع أفراد العصابة، أن الزعيم وحده الذي لا يخاطر، يبقى متحصنًا هنا وجاهزًا للفرار في أي لحظة. وعلى رغم ذلك، لم يكن الجميع موافقًا على قول هذا الضيف الغريب، تلبية لنداء الاحتراز من الغدر، ويظهر هذا بوضوح في اعتكاف بعضهم عن نقاش الأمر بعمومه، لكن تدفق الأقوال، والتذكير بطبع الزعيم الفظّ، يصيب إصابات بالغة في النفس، فيغدو الرفض والقبول كفرسي رهان في مضمار

سباق، يشرح رشيد جميع المزايا القادمة معه، التي ستقفز بهم إلى أعلى المقامات، ويشدُّ الزعيم لجام فرسه متقدمًا بميزة الاستقرار الثابت الآمن، يصرُّ رشيد على أن قالب الحلوى لا يُصنع إلّا بعد تكسير البيض، هذا ما أثبته التاريخ، وأنه لو فشل في التكسير بإمكانهم العودة جميعًا إلى صف الزعيم من دون أن يخسروا أي شيء، وتغلب روح التحدي على السباق، يصهل الفرسان، يفلت اللجام من يدي الزعيم.. في لحظة خروج السؤال:

– من الزعيم الجديد؟

يجيب رشيد:

– كلنا زعماء.

ويقول لأحدهم بعد النهوض:

– عليك أن تقطع الكهرباء عن المكان، وأن لا تعيدها حتى تسمع صوت إطلاق نار، طلقة واحدة فقط.

– وزوجك؟

– اقطع الكهرباء، ليس لدينا كثير من الوقت.

ويبتعد اللص متجهًا لأقصى زاوية، على حين يُفك قيد رشيد، ويشير بإشارات حماسية للذين لا يزال لديهم شيء من تردد، فيتفرقون عن بعضهم وهم متمسكين بمسدساتهم خوفًا من الذي سيحصل.

تُقطع الكهرباء.

يبتلع الظلام كل شيء.

تصل إشارة، يرتجف أحدهم من ظلام لا يتمنى يومًا أن يأتي، وهو ممدد على السرير تحت أمواج الأنثى الناعمة، التي تلتقط المسدس المرمي على كرتونة قريبة، وتفجّر جمجمته بطلقة واحدة ينتشر أزيزها عبر فراغ المكان.

تعود الكهرباء.

كل منهم يتلفت حوله متحفز بسلاحه، وتمر بينهم رصاصة على هيئة رجل، رشيد، مندفعًا نحو الغرفة، يركضون خلفه، وقبل أن يصلوا يُفتح الباب وتطلُّ منه أنثى ملطّخة بدمٍ، وعطرٍ أخّاذ.

وتزيح عبير عن الباب، الزعيم على السرير، أزرار قميصه مفتوحة، ورأسه، يستمر الصمت للحظات، الجميع يقف عند حدِّ الباب ونظرات مذهولة تتفحص ذئبًا كان بأنياب، قضت عليه نعجة وديعة بيضاء، حتى يصيح رشيد:

– لنبدأ عصرنا الجديد، يا زعماء.

□ □ □

يبدأ العصر الجديد بالفعل، تلك الحادثة تكون سببًا كافيًا ليكسبا إعجاب الجميع، رشيد وشريكته، وتلك الطلقة، تحطم كل ما بناه الزعيم، تحطم مكانة الزعيم نفسها، ويستمتعون بحريّة التخلص من كل قيد، يعترضون، يؤيدون، يقترحون، وينجحون في كل الخطط التي يضعها رشيد، ويتقاسمون كل شيء بالتساوي، حتى ثمن أعضاء الزعيم القديم، الحلوى الموعودة تدخل الفرن بكامل مكوناتها، وتخرج شهية مغرية، وتؤكل بلذة كبيرة على طاولة مدورة عادلة.

لكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد المعقول، الذي لا تتنعم به أي عصابة، إذ يهدأ وهج السرور، بعد حين، ويعود الوجوم يعلو الوجوه، تتناقص الحلوى، تظهر زوايا، يُلعق الفتات، تُفقد الأسلحة من على الخصور، وتظلّ معلقة حول ثلاثة منها يُشكّل أصحابها في الخفاء قوة عميقة، صارمة، عندما تطفر ليس من الممكن مواجهتها، تحتمي وراء تِرس التذكير بمصير الذئب

الذي كان بأنياب، الذئب الذي يخرج من تلك الصورة الأخيرة له ويعود بينهم بهيئة جديدة، أنيابه أطول، ومخالبه أقسى، يأمر رشيد أن يقتلوا كل من يعترض طريقهم في أثناء تنفيذ عمليات السطو، لسدّ الطريق التي جاء منها، ويحصّن نفسه جيدًا بشريكيه، عبير، والرجل الذي يخفى نقودهما ببراعة حينما يكونا مخطوفين، والذي يوجه ضوءًا يكون بحوزته من غير داع نحو واجهة المحل، ويركض بعدها، صارخًا لذكائه الشديد قبل أن يراهما:

- توقفا.

وفي طريقهم إلى موقع العملية يتبرّم أحد الأذكياء مستاءً من رفض رشيد لاقتراح يصبُّ في خدمة العملية، ويجاريه في التبرّم من يسمعه، ويؤيدون بشدة أنهم يأخذون مكانهم بجدارة في قاع مجتمع الظلام، تحت مقام جميع العصابات!

جدل على هامش اللونجا

«انتظار السكرة»

الرجل الأول يقول بغضب:

– هذا النادل يتأخر كثيرًا في ملء الأقداح.

ويقول:

– سأضربه.

ثم يقول:

– سأقتله.

الرجل الثاني يسأل:

– ومن سيملأ لك الأقداح بعد أن تقتله؟

– سأنهض من مكاني وأملأها بنفسي.

– ستصير أنت النادل هنا.

- وليكن.

- وإذا ما تأخرت في خدمة أحدهم، ماذا سيحدث؟

الرجل الأول لا يجيب.

- سيغضب منك.

يبدأ بالتفكير. الرجل الثاني يضيف:

- وسيضربك.

يشعر بالخوف.

- ثم سيقتلك.

يرمق النادل البعيد بجزع، ثم يهتف:

- إذن سأنتظر، سأنتظر.

الرجل الثاني يرسم على الطاولة خطًا مماثلًا لخطوط كثيرة سابقة، مضيفًا بذلك منتظرًا جديدًا مع منتظرين ذلك النادل.

سيليكون

خرجت الممرضات من مكتب الدكتور، يحملنّ فوق رؤوسهنَّ علامات تساؤل.. واستمرين بعدها كثيرًا، يتساءلنَّ فيما بينهنَّ عن سبب ذلك القرار!

قبل يوم...

كان زياد يطفو على سطح البحر، هادئًا كبقايا حطام، مستسلمًا لمداعبة الأمواج الرقيقة والتعرجات التي تصنعها على امتداده، بعينين غافيتين في راحة، وأطراف مسترخية في سكون، وقتذاك، كانت الشمس تسحب على صدره دثارًا من دفء، يلامس بحوافه برودة الماء ليصنع معها اعتدال لطيف يسري في طيّات الجسد.. وفي الحقيقة، أن هذه الحال تمامًا، هي سبب قدومه اليوم. نهاية أيلول، لم يعد التأجيل ممكن، لابد من إجازة يُنعش فيها الروح قبل انصرام الصيف... لكن فجأة، ومفاجآت البحر مخيفة، قطعة من قماش تلتصق بوجهه حتى يكتسي بالسواد، حملتها أنامل إحدى الموجات بغتة، خاف أن يختنق، مددَّ قدميه للأسفل وتطاول بتحفّز، انتزع الشيء الذي عصب عينيه وتفحصه بعناية، تلك المفاجأة لم تكن سوى قطعة من قطع ملابس البحر، التي تغطّي الجزء المجزّأ من المناطق العليا للجنس الآخر، الموصوف بالناعم، ربما

تفلتت من صدرٍ ما لحادث ميكانيكي، وهذا اعتداء من المصنّعين على مخترع هذا اللباس، إذ إنه كان مهندس ميكانيك.. قال زياد، وعرف بالضبط طراز اللباس، من النوع الذي تربط بين قبّتيه حلقة من الأمام، وعقدة من الخلف، العقدة لا تزال صامدة في مكانها، أمّا الحلقة فكانت مفقودة لا أثر لها، وابتسم بطرف فمه بخبث، كأنه اكتشف سرًا حميميًا خاصًا، يحدث بين شخصين في هذا البحر الواسع.

وهمَّ برميها بعيدًا، غير أنه انتبه في لحظة، على مسافة قريبة منه فتاة بوضع غريب، تلك الفتاة تغرق، وذلك الشعاع من الشمس كان يأتي من جهتها ليخترق عينيه، وليضعف قدرته على الإبصار، وفي توّه، صنع بكفه ظل امتد لأسفل الحاجبين، طرد من عينيه الحماوة فاتضحت الرؤية، ليست تغرق، كانت تتلفت بانزعاج وغيظ، ويداها متكتفتان تعتصران صدرها العاري، وعرف أن القطعة الضائعة من لباسها بين يديه، وأحس بنعومة بالغة تنتقل منها إلى أماكن كثيرة فيه.

أعطى لنفسه دفعة قوية، وانبسط على الماء سابحًا نحوها بانسياب. اقترب منها شيئًا فشيئًا، وما أن استقبلت نهاياتها الحسية ذلك الاقتراب، حتى التجّ البحر وهاج، بصرخة عالية تجاوزت حدود (السوبرانو)، أفزعت الأصداف

والنوارس. ارتبك زياد، دهِش، ومن دون إدراك صار يتعجل في التجديف بساعديه، وساقيه، ولمّا كانت تخطر في باله أي فكرة، كانت تحطمها صرخة من الصرخات العاليات، وتشتتها لفُكيرات ناعمات، تنساب من العقل كما ينساب رمل الشاطئ من بين أصابع القدم. فانتابته الحيرة، وراح يلوّح بالحمالة ذات الخيوط، وهي كذلك بدأت تهرب، آثرت ترك صدرها للطبيعة وسبحت بأقصى سرعة، وتصرخ، إلا أنه لم يعِ في وقتها بأن التلويح كان يجب أن يُنفّذ بكلتا اليدين، ليبرز شكل الحمّالة، فهي بيد واحدة لا تُرى، ولا تُفهم. كان هذا حين اضطرب صوت هيجان قريب، شباب سمعوا الصراخ وغطسوا في البحر متجهين نحوهما، لينقذوها، ويوقفوه، وتصرخ، والشباب فتيان، والشاطئ قريب.. والذي حدث، هو أنهم وصلوا إليه برشاقة دلافين، وانقضّوا عليه من كل جانب بشراسة قروش، وأخذوا يشدّونه نحو الشاطئ شدًا عنيفًا، مستخدمين كل أطرافهم وبصاقهم.. سقط في البحر زياد، وفاض في داخله ماءً مالحًا متسللًا عبر الثغرات.. والخبطات، مستمرة في الهطول. أيقن بعدها أن هذا لم يكن سوى تمهيد بسيط، وإحماء، المعركة على الشاطئ كانت أقوى، وأعنف، فالشباب ماهرون في الضرب، وأبسل، وفي تلك الأثناء، بالضبط في مرحلة البسالة، خرجت الفتاة ضامة صدرها بباطن ذراعيها، حتى تلقفها أحد الشباب بمنشفة لفّت بها جواهرها العارية، وتصرخ.

وظهر على إثرها رجال أمن الشاطئ فجأة، كسلطعونات نبتت من تحت الرمل، والتقطوه بكلّاباتهم القاسية وزحفوا به إلى مركزهم القريب، وهو يقول، كما ظل يقول، إنه قد سيء فهمه، ولو ترك له المجال ليحكي لقوّم لهم هذا الفهم. لكن الاقتياد استمر دون إصغاء، حتى وصلوا المركز واستدعوا الفتاة بكل تهذيب، بعد أن ارتدت ملابسها كاملة.. على عكس زياد، الذي ظل متسرولًا بالألوان الزاهية والزهور.

قذف المحقق تهمة التحرش المتعمّد، حتى اصطدمت بقوة في وجه زياد، مثل قالب حلوى يتمازح فيه المرحون، عندما يمرحون، فقال وهو يلحس آثار الكِريمة:

– وجدت هذه في البحر، وأردت إعادتها لها، ما الجريمة التي اقترفتها؟

وقدم للمحقق الحمالة التي حافظ عليها رغم كل ما حدث، وقذفها في وجهه كما يتمازح العاشقون، عندما يتعاشقون، وتفاجأت الفتاة من هذا، وبشكل لا إرادي ضاقت كتفاها على صدرها، ثم وافقت على كلام زياد، وأقرّت به، وأوضحت أنها لم تكن في كامل وعيها حينها، فهي بعد أن فقدت الحمالة تلك لم ترى إلّا شيئًا شرسًا طمّاعًا يتقدم نحوها، ومن فورها انطلقت صفارات الإنذار وصاحت.. هكذا قالت، ثم لفحتها نسمة إشفاق هبّت من

هيئة زياد المزرية، الذي لا يبدو عليه إلّا أنه رجل وقور، بعيد كل البعد عن هذه الشبهات.

وبعد انجلاء الحقيقة واتفاق الجميع، بما فيهم المحقق الذي ضحك في سره كثيرًا عند سماعه ملابسات تلك الحادثة، صار بإمكانهما الخروج من المركز، وخرجا. توقفت الفتاة أمام زياد، وحنت رأسها متأسفة، فقال ووجهه منتفخ الملامح، وعلى جسمه تنتشر علامات الخمش والقرص، إن السبب في هذا كله تلك الحمالة، التي انفجرت لطغيان ما تحمل، وإنها يجب أن تحرص على ابتياع القياسات المناسبة مع تطور شكلها، لكي لا تسبب الأذى للأخرين. وأنهى قوله بشتيمة، صاغها بأسلوب مؤدب، وبصوت خفيض:

– سحقًا للصدور الكبيرة.

وداهم الخجل وجه الفتاة أكثر، وتفرست في وجه الرجل، وهي تفكر ساكتة، ثم صرخت كأن شبحًا قد انقض عليها من مقلتيه، مذهولة، وسألت بعد شهقة:

– الدكتور زياد؟

توقف عن استكشاف الجروح في جسده، ومستغربًا قال:

– نعم!

ومدّت يدها مصافحة إياه، معرّفةً عن نفسها:

– أنا سلوى، قبل شهرين قمتَ بإجراء عملية لي، تذكرني أرجوك.

ثم مرر نظره عليها، من أعلاها إلى أسفلها، مدققًا في كل ما بينهما، فهو بطبيعة عمله يتعرف على الناس من أجزاء أخرى غير الوجوه، ثم أراد إنكار الظنون الموجعة التي سقطت على رأسه، عندما توقفت عيناه عند الطاغيان:

– عملية ماذا؟

انفجرت الفتاة ضاحكة على نحو مفاجئ، وبقي هو يتابعها بنظرة متفحصة، يحاول أن يتذكرها وهي عارية للتأكد من نوع العملية، ثم هدأت قبل أن تقول وهي تنظر للأسفل، تحت ذقنها، بنظرة ذات معنى:

– يا دكتور، صدقت، القياسات المتطورة تسبب مشكلات.

التوّرمات وانتفاخات الوجه منعوا زياد من القيام بأي تعبير في وجهه، لكن يداه مسكتا خصره كأذني جرة، مجسّدةً بتلك الهيئة كل معاني الاستسلام والندم التي استولت عليه، وأطال النظر إلى صدرها وهو يكرر الشتيمة ذاتها، بينما ظلت الفتاة تصخب في الضحك.

ولّما قطع إجازته المنعشة ورجع للعيادة، أصدر قرارًا هامًّا حاسمًا لا رجعة فيه، أخبره لهنّ، للممرضات، ينص على اعتزاله التكبير في أي جزء كان، اعتزالًا نهائي، وفكر الجميع بمدعاة هذا التحوّل، والرابط بينه وبين تلك الكدمات التي عاد بها، غير أنهم لم يجدوا أي إجابة تعلل هذا الشيء، وعند ذكره، كانوا يستحضرون اللحظة الأولى، ويعيدون من جديد، التكهّن، والتفكير، وطرح الاحتمالات!

فانتازيا

فُتحت الستارة، سكنت الأضواء في أماكن وتوهّجت في أخرى، مكبّرات الصوت تلفظ أخر صرير منها، والجمهور يُنهي آخر تمتماته استعدادًا لبدء العرض الكبير.

- "صحوة الأرانب" هو عنوان المسرحية القادمة.

المخرج يتكلم في بداية التحضيرات، يتابع:

- مسرحية قصيرة للأطفال، سنبني فيها مجتمعًا يشبهنا إلى حدٍّ ما، فكما هو معلوم، نحن والأرانب نشترك في كثير من الصفات.

- أليس هذا اعتراف!

استنكارٌ خرج من أحد الممثلين.

- اعترفنا بذلك أم لا، نحن كذلك.

أجابه المخرج واستمر بالشرح:

– مجموعة من الأرانب تعيش حياةً هادئة في غابة جميلةٍ صغيرة. في المسرحية عشر شخصيات، تسعةُ أرانب وثعلب.

ثم صاح وكأنه يلقي عليّ اتهام:

– أنت الثعلب.

وأكمل ويده تناولني بعض الأوراق:

– سوف تندسُّ في مجتمعهم المستقر وتبدأ باختلاق المشكلات وزرع الفتن، للسيطرة عليهم بالتأكيد، ومثلما يفعله أي ثعلب، بالسِلم إن أمكن، وبالعنف إن لزم.

فريقنا كان متواضعًا، المخرج ونحن العشرة، إضافة إلى "الفنيّ" الذي سيراقب العرض ويدير ما عليه إدارته من غرفة التحكم، المطلّة على الصالة عبر نافذةٍ زجاجيةٍ عريضة.

قفز المخرج واعتلى خشبة المسرح، ودخلنا في العمل الجاد، عدد الخطوات، حركة الجسم، وتموضع كل شخصية، كلها أساسيات يجب إعدادها، ثم قمنا من فورها بـ"بروفة طاولة" للاتفاق على سرعة الحوار والفترة الزمنية الفاصلة بين كل مشهد وآخر.. وأيضًا، لاختيار نبرة الصوت الملائمة، إذ لصعوبة

التكلم في أثناء ارتداء الأقنعة سنقوم -مثلما يُقام في كل المسرحيات المشابهة- بتسجيل الحوار مسبقًا وبثّه عبر مكبرات الصوت، وما سنفعله في العرض هو التحرك والإيماء فقط.

قمنا بكل ما يلزم، ورتّبنا كل ما يجب، وبعد تعاقب الأيام امتلأت خشبة المسرح بالأشجار وسلال الجزر وجرادل الماء، الأزياء والأقنعة جُهّزت، أنهينا تمريناتنا على أكمل وجه وسجلنا الأصوات، أي أن الوضع كله كان تحت السيطرة.

لكن الأمور لم تجرِ كما المفروض للنهاية، إذ ألمت بالفنيِّ ظروفٌ مفاجئة سببت غيابه في يوم العرض الأول والوقت جدًا ضيق، دار المخرج وحار، ناح وظلّ يكرر بأنه رجل منحوس الطالع ما بقي الزمن، مشى مضموم اليدين خلف الظهر، ونحن مشينا وراءه، دلّك جبهته فدلّكناها معه، وفي النهاية اتفقنا بأنهُ سيترك الكواليس وإدارة المسرح، ليتولّى قدر الإمكان هذه المهام، ولأن دخول الثعلب سيتأخر قليلًا سأقوم أنا بمساعدته في الافتتاحية.. وقد تمَّ الأمر.

سكنتْ الأضواء الأصغر في أماكن وتوهّجت في أخرى، أحد الصحفيين كان حاضرًا مع الأطفال، وأنا برفقة المخرج خلف النافذة الزجاجية، نراقب الصالة.

بدأ العرض وباشر الجميع باللهو، أحد الأرانب كان يقول لصديقه بلهجة طفولية غنائية:

- تعال لنلعب.

فيردُّ الصديق ويقول:

- لمَ لا نلعب جميعًا؟

فتشبك الأرانب أذرعها ببعضها وتدور، وتنط بين شجيرات الورد الملوّن. ثم يصيح أحد آخر بشكل غنائي أيضًا، ويقول لصديق آخر:

- تعال لنأكل.

فيردُّ الصديق الآخر:

- لمَ لا نأكل جميعًا؟

فتقضم الأرانب الجزر والخس قضمًا مرحًا، وتطعم بعضها بعضا، وحين يمرض أحدهم كانوا يلتفّون حوله جميعًا ويمسّدون فروه الأبيض، إلى أن يُعافى، وهكذا، وبعد أن دخل الأطفال في جو الأرانب الهانئ بما يكفي، اقترب موعد ظهور الثعلب. فصاح المخرج بي:

- هيّا.

قفزتُ كالغزال من على كرسيٍّ في غرفة التحكم، تزحلقتُ على حافة الدرج مثل بطريق فَرِح بقدوم الصيف، حتى وصلتُ الطابق الأرضي، وبمرونة سمكة نفذت عبر المقاعد، ثم دخلت من الباب الجانبي الذي يفضي إلى الكواليس متسللًا كالقط. عليك كممثل أن تجيد تأدية كل هذه الأدوار!

بحثت عنه كثيرًا، لم أجده، فتّشت جميع الخزائن، لا أثر للرداء ولا للقناع، أووووه لا أثر للثعلب! موعد ظهوري يقترب، بدأت الموسيقى الشريرة التي تمهد دخولي، يبدو أن المخرج قد نجح في مهامه، والله أنا منحوس الطالع وليس هو، لم أعثر على شيء. التوتر ألهب رأسي ونضحني عرقًا حتى التصقت ثيابي ببدني، سأهدأ لأركز في البحث، أكوامٌ من الأزياء والإكسسوارات والغرف كثيرة، الدنيا مقلوبة كيف سأهدأ يا عالم؟! لا بد أنه قد وجّه بقعة الضوء القوية إلى منتصف المسرح حيث سأقفز، قلبي ينتفض في صدري ويكاد يتملّص مني،

أين القناع يا ناس؟! لم يحدث هذا من قبل، بدأ ضباح الثعلب وبدأت زفراته التي سجلتُها بصوتي تخرج من المكبرات الأصغر، وتخرج مني، بضع ثوان، سأهرب من الباب الخلفي، سأغادر المدينة، لن أخرج، يجب اتخاذ القرار حالًا، الجميع ينتظر، أين أنا.. الجميع سكت، وسكتت الموسيقى! أووووه.

- أنا الثعلب المكّار.

واشرأبت أعناق الجمهور، توسعت الأحداق وضاقت الأجبُن.. أين أنا. الأطفال القصار أخذوا يشدّون قاماتهم ليرصدوا المشهد جيدًا، والذين في المقدمة يمطّون رؤوسهم تعجبًا، الآباء والأمهات الذين حضروا مع أطفالهم صاروا يحملقون ببعضهم، تهزُّ الأم رأسها علامة السؤال، فيهزُّ الأب كتفه ويقلب شفته السفلى علامة البلاهة، وكثُرَ الهرج والمرج والهز. لكنّ أحدًا لم ينتبه للصوت الذي دوى في غرفة التحكم، كان صوت صلعة المخرج وهي تتلقى صفعةً من كفّه.. دُهش كما الجميع.

لقد قررت في آخر لحظة، شمّرت عن ساعديَّ وخرجت بثيابي العادية التي لمّعت حافة الدرج والتقطت غباره، وبقناع التعابير الذي صنعتهُ بملامح بوجهي لكي أحاكي ما استطعت خُبث الثعلب، قفزت إلى بقعة الضوء رافعًا يدي للأعلى، أحدَب الظهر، أفحَج القدمين، حينها بدأ المخرج بالصفع،

وبدأت كاميرا الصحفي تومض في عينيَّ، ثم صرخت قائلًا بلهجة مسرحية عريضة للتعريف عن شخصيتي الضائعة في الكواليس "أنا الثعلب المكّار" متجاوزًا السيناريو المفروض. يجب أن يستمر العرض مهما كانت الظروف، عليك كممثل أن تستمر.. وقد كان.

توالت الأحداث والمشاهد والفصول، تخللتها بعض أصوات اصطكاك ودحرجة مبهمة كانت تنبعث من غرفة التحكم، لكنّي مع كل الذي حدث قمت بدور الثعلب كما يجب وزرعتُ الفتنة بين الجميع، أسناني لاكت لحم من عارضني في الخفاء، ولساني التهم فكر البقية في العلن، وبعد أن أضحت الأرانب صاحبة حقول الجزر في يوم، ظهرتُ أنا فأمست حارسًا عليها، وكلما كان صوتها يعلو من ألم الجوع، كنت أثير في قلبها الخوف من خطر العدو الخفي الذي يعيش بينها، والذي يحاوِل بالتسلط عليها والفتك بها، فتنسى جوعها وتنزوي في جحورها المعتمة فُرادى.

ولّما أوشك نجم الحق أن يأفل، والأرانب كانت تتنازع فيما بينها، خرج عليها أرنبٌ حكيمٌ؛ لم يكن قائدًا ذا شأن، ولا فصيحًا ذا ذقن، بل كان عاقلًا حرًا، اجتمع إلى من تبقى منها وأنذرها بخطر الشقاق، ثم خاط ما فُتق بينها

ورشّ بكلامه الحليم وجوهها حتى استفاقت، فقررتْ التكاتف ضدي وكانت الغلبة لها.

ركضتُ خلفها فحاصرتني، قفزتُ نحوها فوجدتها فوقي، ركلتها، خدشتها، فنهشت بأسنانها الكبيرة أطرافي، وانتهى بي الأمر منبطحًا على الأرض ملويَّ اللسان ميتًا، والأرانب عادت كما كانت قُرانى، تدغدغ أنوفها ببعضها وتضرب مؤخراتها ببعضها، وتغني فرحًا لهذا النصر المجيد، ولانتهاء عصر الحماقة والخَبل.

- الثعلب يتنفس، ليس ميتًا!

اقترب مني طفل يجلس في الصف الأول، مطّ رأسه وتفحصني بدقة، ثم بدأ يهتف:

- الثعلب يتنفس، ليس ميتًا، يا أرانب والله إنه كذاب! يا أرانب.. ياهوووه.

موسيقى النصر كانت تصدح عاليًا، فيعلو بسببها الإباء، ويفور الدم في العروق.. على هذا النحو تبرّم الطفل لتجاهل الجميع له، فلم يجد إلّا أن يتولى الأمر بنفسه، دبّ الحماس فيه وجمع يده التي كان يلّوح بها ويهتف، فكوّن منها قبضةً مُحكمةً متينة، وانهال بالضرب عليّ. كانت يده تلكمني في حُجرة عيني

مباشرةً، مثل مطرقة صغيرة، ورائحة اللعاب التي كانت تفوح منها في أثناء تحركها، كانت تزيد الطين بلّة، فتقسو عليّ معاناتي.. وفي الغالب، كانت لديه عادة حشر الإبهام في الفم ولعقه، لاسيما عند مشاهدة المسرحيات، مثلما يفعل كثير من الصغار، والكبار.. على اختلاف ما يشاهدونه من عروض. كنت أتلوّى برأسي كي أتجنبه، فيحدث العكس، كان يتحمّس أكثر ويعضّ على طرف لسانه، يا ليتني لم أتلّوى، ويصيح:

– يا كذاب، تأكل الأرانب إذن، نهايتك على يدي والله، يا شرير خذ هذه.. يا حقير.. وهذه.

ويستمر باللكم، إلى أن تلقفه أحد الحاضرين الكبار وتأبطه، غير أنه لم يتوقف وظلّ يلكم في الهواء ويركل، يا لجدوى موسيقانا! وحينها، اضطررت لخفض وتيرة تنفسي على قدر ما يُخرسه، وعلى قدر ما يبقيني حيًا حتى نهاية العرض. عرفت وقتها ما قيمة القناع الذي ضاع، ولماذا نرتديه في مسرحيات الأطفال. كان طفلًا مزعجًا وشرسًا، تمنيت أن أنهض وأضمّه من رجليه ويديه مثل صرّة، وألوّح به في الهواء، ثم أقذفه خارج الصالة.. خارج الدنيا. لقد كان بالفعل عرضًا جُهنميًا.

دخل المخرج منتفخ الوريد إلى الصالة، بعد مغادرة الأطفال وهم فرحين بالأرانب المنتصِرة وشامتين بالثعلب وخيمُ العاقبة، كان يحرك أطرافه بتثاقل، ويداه حمراوان من التصفيق، لا بل من اللطم! شفّته هَدِلة وخداه يترجرجان باضطراب في أثناء نزوله الدرج المنصّف بين المقاعد، كانت حاله تشي بمصدر الجلبة والدحرجة التي كانت تأتينا من غرفة التحكم، أشعل سيجارة وبقي صامتًا.

– لماذا خرج الثعلب بهيئة الممثل نفسها، وليس كباقي الشخصيات بقناعٍ ورداءٍ مخصصين؟

ظهر لهُ الصحفي فجأة مثل مارد وسأله ما كان متوقعًا.

حكّ المخرج فخذه ومصّ من السيجارة مصّة طويلة، لكسب ما أمكن من الوقت لإيجاد مخرجًا دراميًا يعلل الذي حصل، ضاقت عيناه وشرد في الأفق البعيد، تلك النظرة الإبداعية التي تبحث في اللا مكان، لتعثر على اللا موجود، وبصورة أقرب وأكثر وضوحًا بدا كأنه يريد أن يتذكر لحن أغنية سمعها وهو جنين في بطن أمه، حينما كانت تمر ذات ظهيرة في السوق ودندن بها أحد المارة.

– يا أستاذ! –تداركتُ أنا الموقف– نحن تقصدنا إظهار الشخصية بهذا الشكل لإعلام الطفل أن.. أن الثعلب لا يبدو شريرًا دائمًا، ولا يمكن معرفته من مظهره الخارجي فقط، لهذا.. لهذا عليه الحذر من كل شيء يحيطه لاجتناب الخطر والخداع.. ويا أستاذ.. ولأن.. ولهذا..

كنت في أثناء حديثي أسترق النظر إلى المخرج، وكان على ما يبدو راضيًا وقد ذهبت –على قدرٍ ما– حدّته. علّق الصحفي الكاميرا على رقبته ثم ودّعنا بابتسامة وانصرف. وبعد البحث تبين أن ما حدث هو نتيجة الفوضى التي أحدثها الممثلين في الكواليس بعد غياب المخرج وانشغاله بالأمور الفنية، اختلطت أزياء المسرحيات ببعضها وضاع رداء الثعلب، فقمنا بترتيب كل شيء في مكانه، وانتهى ذاك اليوم سيّئ الحظ بضيق تنفسّي في صدري، وصلعةٍ قرمزيةٍ كالفُستقة، وضحكاتٍ مكتومة كوّرت وجنات الرفاق. ثم سكنت الأضواء الأصغر في جميع الأماكن.

□ □ □

حضرَ اليوم التالي، كان ثّمة أطفال يلعبون في إحدى الحارات وكنت أنا مارًا فيها، هربوا لمّا رأوني وهم يصرخون، كأنني البُعبُع الشنيع الذي يفظّع في حكايات جداتهم وقد ظهرت لهم، والد أحدهم كان يتشمّس في الحارة، بارِكٌ

على دكّة باب بيته كالجمل المتخوم، قاده ابنه المرعوب إليّ، قال الأب وهو يهرش حول سُرّته ويطبّل عليها:

- هيه.. ما شأنك به؟

- شأني بمن؟ عذرًا يا أخ، لم أكلمه قط.

- لا أخ ولا مخ، قال إنك تريد أكلهُ.. اسمع، إن كنت رجلًا وابن رجل تجرّأ واقضم منه قضمة واحدة فقط، وسنرى من الذي سيُدفن في مكانه حيًّا.

تذكرت شرود المخرج، شردتُ مثله وحككت فخذي:

- هاا.. لا يا أخ، يا عم، يا سيدي لا، هذا من تأثره بمسرحية البارحة، أرجوكم، فقد كنت آكل الارانب هناك، إنه ذكيٌّ جدًا، بالله عليكم حافظوا عليه، أنتم كلكم أذكياء.

ثم قال بلهجة تهديد زاد من جدّيتها إيقاع التطبيل على السرّة، وتجمُّع بعض المطبّلين حوله:

- خِلقتك، أتعرفها؟

فأجبته بنبرة ذات إيقاع عسكري لا يشوبه أي تردد:

- أعرفها جيدًا.

- جميل، خِلقتك هذه لا أريد رؤيتها هنا مرة أخرى، مفهوم؟

- مفهومٌ جيدًا!

ثم غادر عَبِسُ السَحنة، مع ابنه الصفيق الذي بقي يُراقص حاجبيه ويهمس لي من خلف ورك أبيه "يا ثعلب.. يا كذاب" ويلكم في الهواء! ولم يغادرني هذا الاسم قط. الأطفال الذين حضروا العرض أخذوا يلقبونني بالثعلب في كل حارة كنت أمرُّ فيها، وما أسرع انتشار الألقاب بين الأطفال! فشاع اسمي الجديد بشكل واسع بين الألسن والحواجب.

وبعد حفنةٍ صغيرةٍ من الساعات، من اليوم ذاته، وقعت بين يدي الصحيفة المحلية، التي تنشر بالضرورة أخبارًا موثّقة، وإذ بصورة طويلة لي تجاور مقال معنون بـ "هذا هو الثعلب" وكانت هذه هي المشكلة! قرأت المكتوب وكان مماثلًا لوجهة النظر التي أخبرتها للصحفي، والمغزى المراد من المسرحية، كان المقالُ منصفًا وموضوعيًا لكن ليس الجميع يقرأ، والأيدي المتفرغة لهرش السُرر تخلق ألسنة لاذعة، فبدأت الثرثرات تحوم حولي، مثلًا، كان يقول أحدهم:

- لماذا يسمونك الثعلب، بمن غدرت ها؟

ويفوه آخر:

- عارٌ.. والله أنت عارٌ علينا.

ويهمس ثالث:

- لم يبدُ عليك هذا من قبل.. آخ منك آخ.

ويصيح رابع:

- يا ثعلب يا بن الثعالب!

فطار ذكري في الآفاق، أنا الثعلب الذي يخطف الأطفال ويسرق من مُقل الناس الكحل، ولأن لا دخان بلا نار صار الكل يناديني بهذا الاسم، مع نظرة احتقارٍ وقرف، دون أن يعرفوا أن ناري هي مسرحية وهميّة للأطفال، ودخاني هو إشاعة مفبركة.

حتى أصدقائي صاروا ينفرون مني، ولأن الثعلب رمز للشرّ هنا، كانوا حين يبتعدون يغنون لي، فتكرر الغناء والابتعاد من حولي كثيرًا، وحبيبتي التي كانت تمثّل معي في نفس المسرحية، وكنت أتثعلب معها في الكواليس.. هجرتني،

ونكرت كل ثعلباتنا القديمة. لقد تطورت الأمور باتجاهها الخاطئ تمامًا، ولم يقع الحافرُ على الحافرِ، بين المقصود منه وما صار عليه.

سألت الصحفي بعدما نجحت في الوصول إليه عن سبب وضع صورتي بجانب العنوان المريب وإظهاري بهذا الشكل السيّئ، رفع سبابته وأشار للأعلى وقال إنه عمل المحرر، فسألت المحرر وأشار إشارة مماثلة وقال إنه عمل رئيس التحرير، وتوالت الأسئلة وتوالى الرفع، ولا أخفي عليكم أني لم أصل إلى وجهة سباباتهم قط.

– اعترفنا بذلك أم لا، نحن كذلك.

هذا ما قاله المخرج منذ البداية ووجد له حبكة درامية عالجت تأرنب المجتمع، فوجدتني عنده ليخرجني من مأزقي، فهو واسع الاطلاع لا مرية عندي في قوله.. وأيضًا، هو من أدخل المسرح إلى مدينتنا، تكلم بلهجة عارفٍ محنّك، ودار بيننا هذا الحوار:

– أتعرف ما وظيفة الفتاة المساعدة للساحر؟

بدأ بهذا السؤال، لم ينتظر إجابتي وتابع بثقة:

– وظيفتها إلهاء الجمهور برقصها وعريّها لبينما تُدبّر الخديعة، والساحر لا يأتي بها لغير هذا السبب.. فهمت؟

– يعني تريد القول بأن أحدهم قد وجّه الأنظار إليّ لغاية ما، أي مثلما وجه الثعلب غضب الأرانب إلى بعضها! بلى، صحيح.. لأنه حتى الذين قرأوا المقال انغمسوا في وحل الجهلة الآخرين.. صحيح.

– الإيهام هو الحيلة الأنجح، فالساحر مثلًا لن يُبهر الجمهور من دون الفتاة، والثعلب لن يسيطر ويحكم من دون العدو الوهمي، الذي يصنعه بنفسه في مختلف الوسائل المتاحة، وإن لم يعي الجميع ذلك واستمروا بالتسليم لمشيئة الوهم، سيظلون يتقيؤون في فمهم ويبصقون دائمًا على شواربهم، وهذا ما أردنا إخباره للأطفال في المسرحية.

– إذن لابد من صحوة، متى ستحدث صحوة الأرانب؟

– قُلناها.. عندما يخرج الحكيم، ولا أحد غيره.

– مَن الحكيم عندنا؟ أما حان له أن يخرج؟ إلى متى سأبقى محتجزًا على ذمة الفضيحة؟

– ستبقى طويلًا، فالصحوة لا تحدث سوى في المسرحيات.

- لماذا؟

حدجني بنظرة طويلة وهو يمصّ من سيجارته، ثم قال بتأنٍّ ساخر:

- لأن الحكيم عندنا.. هو الثعلب!

وصفّق الجميع بحرارة، من دون أن يعرف أحد منهم من هو الثعلب الحقيقي في هذا العرض الكبير، ومن دون أن تعرفوا أنتم.. كذلك.

وأُغلِقت الستارة!

جدل على هامش اللونجا

«دوّامة»

– هل زرت البحر من قبل؟

– نعم، زرته.

– صفه لي.

– البحرُ مخيفٌ جدًا.

– أنتَ محقٌ، إنه واسعٌ بشكلٍ مخيف.

– هكذا كنت أظن، لكنني أدركت أن الخوف ليس من الاتساع الذي فيه.

– من ماذا الخوف إذن؟

– من الكائنات التي تعض قدميك حتى تُغرقك.

– هل غرقت من قبل؟

– غرقت كثيرًا.

– أنت شجاعٌ حقًا. لن أذهب إلى البحر.

– بصراحة، أنا لم أذهب إلى البحر، لقد أخافني ذاك الرجل الذي قال لي أنه سبح كثيرًا، وغرق كثيرًا.

– أتظنه سبح كثيرًا، وغرق كثيرًا؟

– أظنه لم يذهب إلى البحر قط.

خاتم من دخان

تباطأت في سيرها، نظرت إلى عبود وكشّرت بغضب، ومن دون أي تفكير أو تردد، طرحت عليه بصقة عنيفة حتى تناثر الريق، ثم تابعت الطريق بألفاظٍ مهددة، ضاقت ذرعًا، سأمت منه، قال بلهجة يسيطر عليها الانحلال حين صادفها، أنها يا ويل قلبه تشبه القطة، في الغندرة والبخترة، فزمّت شفتيها، تبرّمت، غمغمت، وكالنفخ في قربة مقطوعة، كان أثر ما فعلت، مما دعاها – غير آسفة– للبصاق.

لم يعر تلك البهدلة أي اهتمام، اعتياد، اعتياد، بل على العكس، فقد ارتسمت على وجهه ملامح انتصار بشيء خفي.. هذه تكون الحال، حال عبود صبيّ القهوة، الشارب لم ينبت في وجهه بعد، والذقن لم تبقل، هذا وحده ما يدعنا نقول عنه صبي، رغم تجاوزه سن العشرين، أما فيما عدا ذلك فقد كان لهيبًا في النشاط والحذاقة، ولهذا لم يستغنِ عنه المعلم أبو دحّام، صاحب قهوة الفرات، على رغم ما يناله من مشكلات وإحراجات بسبب تصرفات صبيّه الطائشة.

وصل عبود القهوة، أحضر جميع ما يلزم، شاي وبن وسكر ومعسل.. وسلّمها إلى غالب، الصبي الثاني الذي يعمل معه، وسلّمه معها خبر صعوده

للشقة، ليعطي أمّه بعض الأغراض التي طلبتها.. ولشيء أخر، قطعًا هنالك شيئًا آخر.

يسكن عبود في شقة فوق القهوة، مع أمه، يملكها أبو دحّام، هو يملك جميع شقق البناية، حاليًا ثلاثة متوزعة في طابقين، الطابق الأول تحتله شقة واسعة يسكن فيها المعلم ذاته، الطابق الثاني مقسم إلى شقتين، في إحداها يعيش عبود وأمه، وفي الأخرى تعيش عائلة أبو سمية، سمية! مسكينةً سمية. أمّا الطابق الأرضي فقد جعله أبو دحام قهوة شعبية، فبعد أن نزح كثير من أهالي دير الزور إلى هذا الحي الذي حافظ بشكل ما على أحجاره، ومنهم سكان الشقتين، كان لابد من قهوة، تحولت البيوت في واجهتها الأمامية إلى دكاكين وقهاوي، وانتقلت أسواق الدير القديمة كلها إليه، فبعد أن كان حيًّا سكنيًّا بعيدًا، صار مركزًا للتسوق والعمل.

دخل المعلم من باب القهوة وفمه يهدر بالبسملة، كان جالسًا عند أحد جيرانه في السوق، ينتظر انتهاء التجهيز، والتنظيف، وتوزيع الكراسي والطاولات، ثم سأل عن عبود بلهجة خشنة، غير مسرورة، كان عبود قد نزل للتوِّ من الشقة، يقفز سبهللًا، وعلى لسانه تتراقص كلمات مبعثرة من أغانٍ كثيرة، ولّما رأى المعلم بهذه الحال خفت صوته إلى حد السكوت، تابع الغناء في

سرّه، هو يحب الغناء، وشرع في العمل تحاميًا من التوبيخ، إلّا أنه بوغت بنداء غاضب، فانتفض من مكانه، واستجاب.

- متى ستصبح بشرًا؟

- خير إن شاء الله!

أحس أبو دحّام أن الكلام الذي ينطوي بداخله غير مناسب للخروج في تلك اللحظة، خاصة أن بعض الزبائن قد دخلوا إلى القهوة مع دخول عبود، هذا ما حدا به إلى أن يقول، بصوت جاف غامض:

- أخبر والدتك أني أريد مقابلتها مساء اليوم.

ومشى بخطوات رصينة إلى أن تدارك مقعده وجلس، ككومة لحمية ضخمة يكتنزها الوقار، تاركًا عبود في حيرة وقلق، محاولًا بينه وبين نفسه معرفة مدعاة هذا الخطاب المتوعّد، إلّا أن طلبات الزبائن المتلاحقة، منعته من التركيز في البحث، فظلَّ يترقب المساء.

مرت ساعات النهار ببطء شديد، لاسيما أن جو القهوة ممل فيه، الزبائن قليلون، ودخولهم يقتصر على طلب بعض المرطبّات أو الماء، على عكس المساء، القهاوي للمساء، تكتظُّ القهوة بالزبائن الدسمين، المطروبين، جلساتهم

طويلة، تؤنسها المشاريب والأراجيل، في تلك الأوقات يصير اسم عبود يلعلع من حلقات الشدّة، ويبعبع من جروح الحناجر، هو يوصّل الطلبات بخفةٍ وفرح، ويميل بسهولة إلى الضحك مع الزبائن، بينما غالب يقوم بالتجهيز في المطبخ، ولا يميل.

أغلقت القهوة، وصعد عبود مع أبي دحّام، لمقابلة الأم.

بعد أن سلّم وجلس، وسأل عن الصحة والأخبار، وبعد أن شكرته لسؤاله، وردّته عليه، تجرّع أبو دحّام شربة من الماء، ليستهل حديثه بصوتٍ صافٍ، لا يشوبه التنحنح، ثم قال:

– يا أم عبود، أخبرك بأن الشكاوى قد كثرت، ولابد لنا من حل.

شزرت عبود بنظرة غاضبة، تحمل في داخلها عتاب وخجل، طأطأت رأسه باعتراف ظاهر للذنب، وبانتظارٍ مستتر لهدف، هدف وصل إليه، أو كاد، ثم رفع رأسه بحذر حين سمعها تقول:

– تصرف به كما تشاء، فبعد المرحوم، ليس لنا سواك.

– أرى أنه يقوم بهذه التصرفات لرغبة تثور في هذا السن داخل الشباب، ونحن نعلمها، فلماذا لا نسعى بتزويجه، والله الموفق.

عندما سمع عبود هذه الجملة، أراد أن ينهض من مكانه، أراد أن يتواثب في الغرفة، راقصًا، دابكًا، أراد أن يهجم على أبي دحام، ليقبله أحر القبل، من خديه البضّين، وبطنه المندلق، لقد أتى بحلٍ دام انتظاره، ثم أراد أن يفتح النافذة ويصرخ باسمها..

- سمية!

قالت الأم باستغراب، ما لبث أن اختفى وتحول إلى تفكير، هذا اقتراحه وسبب قدومه اليوم، ضرب صدره بباطن يمناه ضربة شهامة، تشمل كل التكاليف، فوعدته ووعدها خيرًا، ثم قفل منصرفًا إلى شقته.

عاش عبود ليلة مختلفة، يتلوى بخياله جذلًا والأمل ملءُ فؤادهِ. راقب والدته ورأى أثر ما قاله أبو دحّام عليها، أيقن إن خطته المشاكسة التي راهن عليها قد نجحت، وإن كل البهادل التي تلقاها لم تضع هباءً. تسمرت عيناه على سقف الغرفة، وأخذت ترتسم عليه مشاهد من أيامه القادمة، مع حبيبة قلبه سمية، التي خفق قلبه عندما ذكر أبو دحام اسمها خفقة عظيمة، هزّت كيانه، شأن ذلك لقاءه الأول بها، بعد أن حلّوا في البناية سكانًا جدد، آنذاك كان صاعدًا إلى السطح، يتفقد خزانات الماء بأمر من أبي دحّام الذي آواه وشغّله، لم يكن على علم بأن سمية قد سبقته إلى الأعلى، لتنشر الغسيل، فما كان من قدميه

إلا الارتباك والتعثر، مما فاجأ سمية وأخافها، وحينها، أقسم واعتذر، برر، ترجّى، عبود أنبل من أن يختلس النظر، في الصدر اضطربت أشياء، على غير سابق عهد، أشياء لذيذة.. وبذلك، أيقن أنه وقع في الغرام.

كان هذا اللقاء ذريعة للاعتذار الدائم، في كل مصادفة بينهما، وكانت كثيرة، لأن الفاصل لم يكن غير جدار، وبابين، سمية على ما بدا بعدها أنها وقعت في مثل ما وقع، ولم تمضِ غير فترة قصيرة، حتى توثقت عُرى الألفة والإعجاب، وصارت الأحاديث أحلى، والمصادفات على السطح أكثر.

انتظر عبود خلف باب الشقة، في الصباح التالي، ناصتًا بإذنٍ خبيرة، خرج أبو سمية إلى عمله، بكعب حذاءٍ صُلب دبدب على البلاط، استنفر عبود استعدادًا لخروجها، فهذا وقت ذهابها إلى معمل (الكليجة) التي تشتغل فيه، وفي لحظة، فتح الباب بسحبة واحدة خاطفة، ابتلعت صرير المفاصل، لقد سمع همس حذاء خفيف.

– علينا أن نلتقي اليوم على السطح، هنالك أمرًا كبيرًا قد حصل.

– أخبرني الآن أرجوك.

– في آخر المساء، سأصعد مع الأرجيلة إلى السطح، أنصتي جيدًا لتعرفي وقت صعودي، وأكثري من الغسيل، اتفقنا؟

وغمز لها، فوافقت، وانحدرت على الدرج بخطى خجولة، وقلبٍ لهف.

تدفقت في صدره موجات جبّارة، موجة تلو موجة، طوّحته في قرار السعادة النادرة التي لا تأتي إلّا لمامًا، في هذا اليوم، كان يركض، ويقفز، ويغني بصوت عذب، أغانٍ كاملة. حمل الطفل، طفل صغير جاء مع أبيه، لاطفه عبود، قرص وجنتيه، قبّله، صار يحب الأطفال، هو طفل ويحب الأطفال، وقد لاحظ عليه غالب، فسأله، قبل أن يشعر بالندم على هذا السؤال:

– أراك ستطير من فرحك، سندعو لك بالخير، أخبِرنا.

– أتريد الخير لي فعلًا.

– بالتأكيد.

– إذن سأغادر اليوم مبكرًا، تولَّ أنت إغلاق القهوة.

ولما رأى حماس غالب قد خبا، وغالب قليل الحماس، عاجله القول:

– سأعوض لك بدل هذا اليوم عشرة.. والله يا غالب، يا أخي.

□ □ □

كان وعد عبود بأبدية حبّه لسمية وعدًا صادقًا نابعًا من قلب طيب، لم تلوثه رغم غزارتها رصاصات الزمن الخبيثة، كل منهما كان يهيم بفكره نحو الآخر،

وينتظر اللقاء بشوق، في العمل، والسهر، والانزلاق بين ساعات اليوم، كانا يحملان في وجهيهما رضى وراحة، وقناعة تشاركا في قبولها كنزًا لا يُقدر بثمن.

تعوّد عبود في كل لقاء يجمعهما على السطح أن يحضر أرجيلته، وتعوّدت هي أن تحضر معها بعضًا من قطع الكليجة، حلوى الدير الشعبية، التي تصنعها خصيصًا لعبود. المقاعد من إسمنت، والموسيقى دفقات معدنية بعيدة، واصطدامات مدوية متوهجة، وقد يكون من الغريب القول إن هذه الجلسة البسيطة، المتوترة، كانت تأخذ روح كل منهما إلى أعالي سماوات الفرح والغبطة، لكنها كانت كذلك، وأكثر.

□ □ □

وحلّ المساء، كأمنية يتمناها البشر في كل يوم ثلاثاء، هذا اليوم الغريب، المتطفّل على الأيام، عند كل شعوب الأرض هو يوم شؤم، "يوم النار"، "اليوم الأسود"، أسماء مختلفة تحاول وصفه، ولا عجب في ذلك لما يشعله في الصدور من حنق وضيق، كما أن الكره جعل الإيطاليين يظنون إن برجهم أصبح مائلًا لأنهم بدأوا في بنائه يوم الثلاثاء، ما أبأس الثلاثاء، وعلى الرغم من أننا لا نملك برجًا، أو أساطير عجيبة، إلّا أننا نتشارك مع بقية الشعوب في بغض هذا اليوم، ونتمنى خلاصه منذ ساعات فجره الأولى.

صعد عبود السطح محلقًا بجناحين من توق، في نهاية ثلاثاء مليء بالترقب، والإيمان بأن الأيام القادمة حُبلى بالبهجة وتحقيق الآمال، جهّز الأرجيلة وبدأ التدخين، ثم أخرج طيرًا من قفص، طير صغير، ساكنٌ عند إحدى زوايا السطح، قبّل ريشه المزرق ورماه في الهواء، وأخذ يراقبه وهو يموج بجناحيه في صفحة الليل، فرحًا، قبل أن يعود إلى حِضن الرفيق، ويرتوي من الماء المتجمع في فيه.. وهكذا، يضم عبود شفتيه، ليسقي الطير، ولينفث الدخان على شكل حلقات، ويضحك، تبرز أمامه عادّة يشاركها مع سميّة، ويضحك، كان يمسك يدها وينفث عليها حلقة من الدخان، لتدخل في إحدى أصابعها، ثم يقول وعيناه تلمعان بإصرار عميق: هذه الحلقة ستصير خاتمًا حقيقيًا في وقت قريب. واليوم، سيفاجئها بأن المرام قد اقترب، وأن ما باح به من كلام سيصير واقعًا ملموسًا، رغم رفض والدته المتكرر، تقول إن الزمان غير صالح لمثل هذا الارتباط، وأنه -قد يكون- احتمالًا قريب الأمد أو بعيد، أما وقد صار حتميًا، أخذ يفكر بالطريقة التي سيزف بها الخبر، ولم يجد إلا أن يكرر لحظة الاعتراف الأول، اللحظة تلك، في مساءٍ يشبه هذا، حينما أحضرت معها سمية أول طبق من الكليجة، وحينما أحضر هو أول مرة أرجيلته، الشيء الوحيد الذي يملكه من المتاع، فكل ما في شقتهم هو لأبي دحام، الاثنان كانا يومذاك متلهفان، ولهفة التقرب تطغى على الجلسة، حين أحست أن عبود اقترب منها على غير سابق

مثال، لم تشعر وقتها بأنها تريد غير ذلك، التهبت نيرانٌ حُمرٌ، سخّنت، أحرقت، صار الإسمنت ريشًا، والمدافع همسًا يخرج من حنجرة الليل، اقترب منها فنامت عيناها، تريد ولا تحب، تحب ولا تريد، سرحت تتلمس وجوده عبر أنفاسه، لم تستطع حينها أن تمانع، رغم الانفعالات في داخلها، لم تمانع، سمحت ليده أن تقترب من شفتيها الطريتين، أول مرة، المستعدتين، فقالت في نفسها سأبتعد، سأهرب، ثم قالت سأبقى، أنا أحب عبود، استغربت من أن يده تجاوزت شفتيها، فأذعنت مستعدة لعناق قوي، سيقفل ذراعه حول رقبتها ويضمها بكامل جسدها المتراخ إلى صدره، جسدها ينهار، وصدره يغني، لكنها تفاجأت بشيء، وانتفضت ملسوعة.

– يا أهبل ماذا تفعل!

رأته بعد أن فتحت عينيها أنه يمسك بشحمة أذنها ويتلمسها بين أصابعه بلذة كبيرة، وهو يقول:

– ما أنعمها.. أحبك!

عبود نبيل، وطيّب.

□ □ □

تحضّرت سمية على أكمل وجه، اغتسلت وارتدت ثيابًا جميلة تبرز أنوثتها، إلى جانب طبق الكليجة، ونيس الجلسات، وطبق الغسيل، أساسها، كانت تتأمل نفسها في المرآة، وهي تمشط شعرها الرطب وتجدله، وتراقب سمارها البرّاق المشوب بحمرة تنضح خجلًا قبل كل لقاء، وفي داخلها تساؤل عميق عمّا يخبئه عبود، كانت تراقب، وتتساءل، حتّى شق أذنها صفيرٌ قادمٌ من السماء، صفير مسنون الحواف، تبعه انفجار كبير، قريب، وهزّة في الأركان، رمتها من على مقعدها الصغير، هي والكليجة، وجدائلها التي لم تكتمل.

صرخت، طنينٌ ثقيل أصاب أذنها، الصفير مازال يجرح، شعور بأن أحدًا ما يجثي فوق صدرها، كأنه السقف، حاولت أن تبعده، السقف في مكانه، حاولت أن تزحف، صورٌ كثيرة ومضت في رأسها، لكنها تاهت، اتصل أعلى الغرفة بأسفلها، واختلط أقصاها بأدناها، وفي جنباتها عمّ غبار مظلم، تطوف فيه أشباح تحمل مناجل طويلة يسيل من نصالها سائلٌ أسودُ، كأنه دمٌّ قديم، صورٌ كثيرة، ما زالت تحاول الحركة وفي داخلها تتخبط روحٌ فزعة، ولمّا مالت المناجل نحو العنق والعينين، تراءى لها وجه عبود، عبود في الأعلى، فصاحت باسمه بكل ما في صدرها من هواء، صيحة كادت أن تشمل الكون كله، حتى هربت

الأشباح والصور، واسترسلت في غياب عميق، وهي ترسل من جوفها أنّات طويلة متقطعة.

كان الطير يحلق فوق البناية، مرتاعًا مرعوب، سقطت القذيفة فوق بيته، نهشته مع جدار السطح، لو كان بالقفص لصار غبار، انتظر انقشاع الغبار، ولمّا انقشعت الغمامة رأى عبود، حتى لو لم يكن عبود، رآه ببصيرةٍ لا تُخطئ، هبط بأجنحةٍ متوترة، مختلّة، لم يجسر على الاقتراب أول ما نزل، المنظر مخيف، لكنه عبود، رفرف بجناحيه، هدهد، اقترب ونقر الخدود، لا جدوى، لا مُجيب، أخذ يمشي ناحيته محتارًا، وأقدامه من دون أن تدري كانت تترك أثرًا أحمرَ بعد أن تغمّست في الدم المنفجر من الرأس، رأس عبود كان مليئًا بالشظايا، صغيرٌ رأسه، كبيرة الشظايا. وما هي غير لحظات، قلقات، حتى رأى الطير القادمون من الأسفل، مندفعون كأنهم هاربون من فكي وحش. أم عبود وأبو سمية. الأم تصيح وتصرخ، تضرب الثوب، تشق الثوب، تسأل، والطير يسأل، أهذا هو عبود الذي قبّل رأسها منذ قليل حين أعطته الموافقة؟ عبود؟ أهذا هو الذي أخبرها أن تحضّر العشاء لبينما يدخن أرجيلته فوق السطح ويعود؟ أين الأرجيلة؟ من سيعود؟ من سيسهر معها ويسامرها؟ من سيحوّل أرضها القاحلة إلى جنّةٍ فيحاء؟ ومما رآه الطير، أبو سمية يُنهض عبود، يرفعه بقوة على

الكتف، عبود خفيف، كالأطفال خفيف، ثم ينزل به مضطربًا متعجّلًا، فيخلو الجو من البشر، لم يبقَ سوى وهج الانفجار المخيف، والطير يدور حول بقع الدم الحار.

مساءٌ كئيب، في عادته صامت، الصمت ثقيل، لكن الصياح أثقل، والصدور ضعيفة، والأم تنتظر، ماذا تنتظر؟ فليأخذها الموت إن كان لابد من عزاء، وليترك عبود، شبابه ضاع بين نزوح وشقاء، ولما عمّه الفرج خطفه الليل العنيف، قالت هذا بصوت متهدج، داعية، مخنوقة، صابرة، ما فائدة الصبر، طفر الدمع من العين، فاض، أغرق الحارة، الجميع يحبُّ عبود، غالب بكى، أبو دحّام حشرج في حلقه الصوت، تملّحت الوجوه برمالٍ باهتة، جاء الخبر من الطبيب، من بين ضجيج سكان الحي جاء، قال الطبيب: ابتلاء ابتلاء، اصبري يا أم عبود، عبود سبقك إلى السماء.

سمية قامت، تهتف أين هي، أجابها الظلام، أنت وحيدة، ستظلّين وحيدة. هتفت كثيرًا، أين عبود، كان يريد أن يقول لي، اسألوه ماذا كان يريد أن يقول. سرقت الخبر من همسة، همسة مخنوقة من أمها. قامت سمية، كالميتة قامت، تريد عبود، رأت الجميع يبكي، ينوح، ابتلاء يا سمية ابتلاء، بشعٌ هو يوم الثلاثاء، بشعٌ هو يوم الثلاثاء.

وأحب الطير سميّة، بلا قفص ظلّ ساكنًا فوق السطح، لا يعرف غير هذا السطح، تزوره سمية كل يوم، تسقيه، تنثر له حبوبًا بكفٍ حزين، يأكل منها قليل، ويصدّ عن كثير. صارت تمضي معظم يومها في الشقة المجاورة، علّها تقاوم أصابع اليأس التي لا تنفك تشدّ أم عبود، تشدّها رويدًا رويدًا إلى حافة النهاية واليباس، حتى طمست معالمها داخل ملفعها الأسود. ترخي سمية رأسها بين قدميها، على السطح فوق مقعد الإسمنت، مع من تعيش، من سيغازل وجهها الريان، من سيمزح، سيغني.. وتلك الليلة، انتابها شعور غريب، غريب لها، أما الناس عرفوه، انتفضت ملسوعة، عاد عبود، عاد عبود، التفتت حولها، مبتسمة، مستبشرة، لا شيء سوى العتَمة والقمر، قمر ينشر حزنًا رماديًّا، وطيورٌ تراقب أسطح البنايات والدخان. وتتلفت سمية، وتمسك أذنها التي يحبها عبود، وتنادي، وتتأمل خاتم الدخان الذي ألبسها إياه، وتشهق، شعور غريب، قالت سمية إنه غريب، بوجعٍ قالت، والناس قالوا، بألمٍ قالوا: جنّت سمية، مسكينة، مسكينة سمية!

المولية

وقوفٌ واتّكاء، بكلتا الذراعين، على درابزين رصيف ينهض عند طرف النهر كشرفة قديمة لإحدى القصور، ينساب منها اخضرارٌ فوّاح ندي، يداعب المجرى البراق..

هذه صورتي المختصرة في ذاك المساء، الذي لم يبدِ في أوله أي نيّة للصراخ. فمنذ أن هبط المغيب انتشر في الجو شذا الفرات، كمثارٍ للأشواق والتأمل، غير أن مدينتنا لا تخلو من مثل هذه المساءات، المطمئنّة، الموسومة بتأبط الأذرع والرقص في شوارع الغرام، أو المشي في صفاء ينداح على الأرصفة.. مدينتنا البكر، المحافظة على كثير من سمات المكان الفضيل، ولربما دير الزور -كما نؤمن- هي نبضة من نبضات السكينة والسرور، الآيلة إلى الندرة في هذا الوجود الهائج.

على وجه التحديد في شارع النهر، الشارع الموصوف بجمال الممشى وعذوبة الأجواء، وما يمحي من همّ، ويبعث من انشراح، على هذا النحو كنت مع نقاوة السماء، ومياه الفرات العاكسة لتلألؤ القمر، حين أخذت النسائم تتمطّى على إيقاع أغنية "الموليّة"، القادمة من بعيد كتيارٍ محرّضٍ للشعور، يغشي على

السامعين ملامح البهجة المألوفة بين وجوه أهل الدير. أخذت تقترب أمواج الموسيقى ببطء مهذب لا يخرق هدوء الفرات، أو يعبث في صفو بال زائريه، مجاريةً بما تقول اللهجة الديرية الرصينة، التي أغرت مسامعي حينها من الوراء، محمولة مع صوت بديع يتلاءم مع أناقة المكان، نبّه حواسي بلطف فأملت إليه، ليشرق أمامي صبيٌّ متهلل الوجه بشوش، يجرُّ على جنبه دراجة هوائية صغيرة فيها مسجلة تصدح منها الموليّة، الأغنية المحرّضة على الارتحال نحو العوالم الخبيئة، بين هالات الشرود المضيئة، وقتامة الوعي الخشن. في مقدمة الدراجة سلّة تحمل بعض الورد الأحمر، يبيعه هذا الصبي بكل حبٍّ للعاشقين.

تعابير وجهه المدوّر فيها خبرة غير هيّنة، مأخوذة من عبث الشارع، وفي ابتسامته لمعان أخّاذ قادم من النجوم، ثيابه في ما تظهره من العتق.. مرتبة، وحذاؤه يحكي مشقة المشي الطويل. مازلت أجول في تفاصيله على حين كان يفاكهني بكلامه المنمّق، الملامس للقلب، يحثُّ فيّ الرغبة على الشراء.

رغم ماضيه المرّ كما تقول الهيئة، والقصير كما يقول العمر، إلا أن التبسّم لم يفارق وجهه قط، وكأنه خُلق بهذي الصورة على نحوٍ أبديٍّ عجيب، ولم يفارقني أيضًا، لسرعة الإيناس بيننا، ولم أجدني إلّا مذعنًا لبراءته، أمسك بوردة

انتقاها لي بنفسه، تشبهه بالبهاء واللين، ثم تابع طريقه مع ابتسامة رضى مترنحًا برأسه مع إيقاع المولّية. أمّا عن وحدتي، فقد زالت مع تلك الوردة الساحرة.

عدتُ إلى شرودي في سطح النهر الهادئ، الذي يهدر بتفعيلة موزونة متسّقة، أتقلّب مع الحكايات التي تطفو عليه، وهي تمضي مبتعدة إلى أن تغيب في صفيحة الماء المنبسط، كلسانٍ من حديد، في هذا المجرى الضيق المنصرف عن الرافد الغزير ليدخل المدينة ويسقيها في التواءاتٍ بهية، تحضن بداخلها بساتين وحوائج، ومطاعم ومقاهي، وبيوت تسهر كل مساء مع همس النبات ونقيق الضفادع. كان الجميع يأمل في الفرات ويستبشر بلقياه، فهو ملاذ الحائرين، ومُعين.

وبينما كان يحصل ذاك الشرود القصيُّ، صخب حاد مزق نعاس المكان، في نفس الشارع بجانب دوّار "فندق زياد"، أحد الفنادق المحدقة بعين السكينة على النهر، وأثناء محاولة الاستفاقة من ثمالة الذكريات، للتيّقظ والاستيعاب، اندفع الناس قبلي، فاصطدم بكتفي عدّة أشخاص لم يكونوا على ما يبدو شاردين، وإحدى الاصطدامات جعلت الوردة تسقط من يدي.

ركضت مع الراكضين في استكشاف وريبة، بعد أن خبأت الوردة في جيب سترتي الداخلي. حادث اصطدام بين سيارتين تعاندتا على بلوغ الدوّار، كان

الضرر بسيط، فالدوّار مزدحم ومجال السرعة محدود، إلّا أنَّه وبشكل مباغت، عنيف، حصان جامح من العطر حطم أسوار وعيّ، عطرٌ قادمٌ من أرائج الجنّات، اجتاح حنايا صدري وعصر قلبي نشوة، وأدخلني في تيه فجائي بسرعة البرق.

تلاشت لحظات اكتشاف الحادث والتحقق من سلامة السائقين على عجل، لإلحاح الزمامير المتجمعة، وبدأت المسافة تطول بيني وبين نفحات الطيب، بيد أني كنت لسبب ما، مشدوه القرارات، ومهموم الخبايا.

تجاوزتُ فندق زياد، مولّيًا ظهري للنهر، ثم عبرت من حارة الكنيسة العريقة، المرخّمة بالقداسة، وقطعت الشارع العام بباعث دبَّ في الأعماق، إلى أن وصلت شارع سينما فؤاد، الذي تحفّه المحلات من الجانبين، وتطوف به أصوات الهمهمة الديرية بحيوية لا تنطفئ طوال ساعات اليوم، فاستقرت خطاي فيه، اندفاعٌ مجهول المصدر كان يحملني بين ذراعيه، وهمسٌ ناعمٌ كان يوشوش سمعي ويغذّيه بالحماس، فتابعت.

برق بصري على سقوط مفاجئ، علّاقة مفاتيح تملصت من جزدان إحدى الفتيات، ميزتها بوضوح لقربي منها، وأخال هذا السبب مقنع، فوسعت الخطى

وأسرعت المسير، ثم التقطتها من الأرض وبمشيٍ قريب للركض أدركت الفتاة، تنحنحت طالبًا منها الوقوف:

– عفوًا يا آنسة، سقط منك شيء.

قالت مستغربة وقد رفعت جزدانها لتتفقده:

– ما هو؟

مددت يدي لأعطيها المفاتيح، وبداخلي رفض للاعتراف، لا أنكر انجذابي المدهش إليها منذ أن رأيتها أول مرة بين لمّة المتجمعين حول الحادث، ولا أنكر غيابي للحظات في أثناء ذوبان عبيرها بصدري، ولا أنكر تأملي الطويل بشعرها الغائب في ظلام غامض مموّج، وبعينيها اللوزيتين المكحلتين بأهداب وطف، لا أنكر.. لكن فلنقل إنها المصادفة! كانت لحظة وقوفنا معًا لحظة خاصة، لأنه بشكل ما كنت أملك حواسها، وبشكل آخر كنت أسرقها من غير حق، هذه اللحظة بما تحتويه من سرقة وخصوصية، جعلت من صدري هدير عنيف، ومن دمي انفعالات جمر.

– ما هو؟

كررت السؤال وهي تنظر بتبرّم إلى يدي الفارغة.

– مفاتيح، هنا في يدي، سقطت منك، والله مفاتيح!

فنطقتْ بغيظٍ لم يغلب على نعومة صوتها الحريري:

– أين هي؟ أسقطت منك أيضًا؟ ولعلمك أنا لا أحمل معي أي مفاتيح، اتركني وشأني، إذا سمحت.

ثم غادرتني منزعجة، وبقيت مع خيال المفاتيح في يدي، وشذرات الكلمات التي أردت إلقاءها عليها، إذا ما تابعنا المشوار معًا في شارع سينما فؤاد، بين ضجيج الناس والمحلات، الذين سيعرفون من ابتسامة عيناي كم تهشّمتُ من حادث السيارات ذاك.

كذلك في أول لقائي بها رجوت –ولا أدري إن كان جائزًا لي هذا الرجاء– أن يكون الحادث أخطر، لكي يطول ذلك اللقاء، ربما سنرافق المصابين إلى المستشفى، فيكون المكان أضيق علينا من هذا الشارع الواسع، المهرّب للفرص، وربما سأتحيّن وقت انتظار الخبر من الأطباء، وأشتبك معها في نقاش حول حوادث السير، وضرورة التريّث والانتباه، وربما، سنتشابك في طريق العودة، والليل.

ليلة طويلة، قضيّتها مسهّدًا يتناوبان فيها الأرق والقلق على رأسي، أحيِّ فيها من فوق سريري ما حدث معي في ذاك المساء، استرجعت بدايته، منذ شرودي في الفرات وسفري مع قوارب الأحاديث والأسئلة، إلى ذاك الموقف الغريب، عادت أمامي تلك الفتاة السالبة للجنان، كان رداءها ينطوي على جسم ينطق بالإغراء، فيه حرارة تُذيب القساوة في الأعماق، ساحرٌ، فتّانٌ، شأن ذلك صورتها المتسامية بجمالها إلى سماوات عُلا. أليس من الجائز أني سأعيش بقية حياتي منزويًا في مغارات الندم؟

تخبّطت في نومي، وفي رؤياتي، ما الذي حلَّ بي؟ هذا ليس إلّا جنون الفرات العظيم، هذا إرغام على الحب، وتوهان يأخذ إلى حواف الحياة السحيقة، حيث يتجمع كل ما فرطنا فيه بتراخ دون أن نتعلق به كما يجب، لو تعلقنا ببعض اللحظات لربما كانت الحياة أجمل، وأكثر تماهيًا مع الأحلام.

وقوفً واتّكاء، في نفس المكان، في غير مساء، رغبة جامحة تقودني إلى هنا في نهايات الأيام، وكأنه هروب من تلوثات سُفلى إلى آفاق بعيدة أكثر نقاءً وسكون، كماء الفرات الحر، القادم عبر أخاديد شقّها بهدوء عبر السنين، معطّرًا برائحة الأرض الخالدة، التي دارت بي آنذاك، وقلّبتني بين الكواكب بجنون، لتطلَّ عليَّ الفتاة ذاتها كومضة طاغية الحضور، تمشي على هونٍ بوجهٍ مولّى نحو

النهر، في رقة لا متناهية، ورهافة مُذهلة، ثم وقفت واتّكأت على الدرابزين، بنقلات أنيقة هادئة تأخذ مكانها في الذهن، وتستولي عليه، على مسافة ليست ببعيدة عنّي.

أخذ الانفعال الضارب في الجوف يتصاعد، منبثقةً منه احتمالات كثيرة لا تعطي وعودًا أو ضمانات، كالسباحة في النهر، ستكون حياةً إن أراد، وزوالًا إن شاء، ولمعرفة المصير ينبغي الانصياع لما قيل من قبل: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب!

حانت من الرغائب التفاتة نحوي، بوجه غير مهتم، وعينان ساكنتان تعيشان في دنيا السلام، ثم عاد نظرها كما أتى إلى النهر، الذي يقول لي وهو الساكن بداخلي: لا تبتعد، فالحضارات تسابقت من كل الأصقاع إلي، تروم الحب والأمان، وتعلم الحكمة من جرياني الباقي كشريان لا ينضب.. ولهذا، أجدني كل يوم عنده، بفطرة الحضارات الأوائل.

التفتت مرة أخرى، وكأنها ميّزت هذا الوجه المضطرب بالسعادة والحيرة، ثم نضح وجهها بالارتياح، وابتسمت بفتور وبمحاولة للتذكّر، ابتسامة لم أفهمها إلا إعلانًا بالقبول، فبدأت اقترب منها، في خطوات صاحية حذرة، ورأس مذهول، يبعدني عنها التردد، ويشدني إليها الشغف، طفقت أتلمس

طريقي بمجاديف من أمل، حتى استقريتُ بجانبها كمركب تائه وجد شاطئه الموعود، ووجهي إلى الفرات يميل.

ثم قالت بهمسٍ بعد سكوت، دون النظر إلي، وكأنها تخاطب عتَمة الماء:

– ألم تجد المفاتيح بعد؟

نظرتْ إلى فوق، ساكتة، ثم أخرجت من مجاميع قلبها ضحكة متمردة على الكتمان، جعلت عينيها تبدوان كضربة ريشة فنان مهمل، استحال إهماله معجزات، ودارت نحوي لتراني في غياب، لسان حالي يقول إني صعدت للتو إلى النعيم، ولسان قولي يسأل، بصوت خفيض خجول:

– أينفع الاعتذار؟

قالت وهي تتظاهر بالتخمين:

– لكن الاعتذار دائمًا يكون بداية!

– علم هذا عند الله.

– كل ما في الأمر أني أنكر عليك ملاحقتي، والتحجج بخيال وشت تعابير وجهك البارحة أنه أدهشك.

– عطرك الذي أدهشني بحق.

وفتحت جزدانها وأخرجت من داخله وردة حمراء.. وأضافت بعد أن ملأت صدرها بشذاها:

– ربما هو عطر الوردة.

ثم جنحت بذهنها تحاول استجرار ذكرى ما، من مكان بعيد ضيّق، وتابعت:

– دعني أخبرك إن لهذه الوردة قصة غريبة.

أذعنتُ لنداء ملّحٍ في داخلي، وسرحت في عمق النهر، وفي رأسي تجوس خواطر مبهمة، أخذتني إلى مساء الأمس، إلى الصبيِّ الملائكي البشوش، وأنا أسأله:

– لماذا برأيك قد أحتاج الورد؟

فأجاب بمكر وفصاحة:

– كي تُرضي الزوجة، أو تُغري الحبيبة!

– لست متزوج، ولا مُحب.

- أتسمع مني؟

وافقت بابتسامة إصغاء حينها، فقال:

- خذ مني واحدة، وسيدهمك الحب فورًا.

كأنني غفوت لحظة ثم تيقّظت، فعدتُّ مضطربًا من عالم الأمس، أخرجت الوردة النائمة في جيبي، وأنا أرشق الفتاة بنظرة حادّة، أيعقل أن تكون هي من اصطدمت بكتفي البارحة وأسقطت مني الوردة؟ ولّما رأتها استقامت من اتّكائها متعجبة وهي تقلب نظرها بين الوردتين.. فسألتني:

- ما الذي قادك إلى هنا.

- عطر الوردة، وأنتِ؟

- قادني وعد الصبي!

□ □ □

طرِب الفؤاد سرورًا وبدأت تتسرب على المسامع موجات الموليّة، فأشارت لي بإصبع تقول "ها هو" لأنظر إلى القادم، كان الصبي الطريف ذاته، تحيطه غلالة من نور وموسيقى، يطوّح يده في الهواء نحونا فرحًا، وبجانبه دراجته

الصغيرة، وكلما كان يقترب كان الصوت يصير أكثر عذوبة ووضوح، إلى أن أخذ يتبدد بشكل تدريجي، وصار الصبي يلمع كذرات براقة لم تلبث أن فرّقها هواء الفرات، وذرّها عاليًا، حتى نالت منه قبضة السماء تمامًا.. واستحال بين النجوم ابتسامة لامعة، لا تُنسى إلى الأبد.

ثم التفت إلى زوجه، ليراها تجري وراء لحظات قديمة، وهي تتأمل صورًا فوتوغرافية للدير، بعينٍ تُنذر بالدمع، ثم أرخى نظره صوب طفلهما، حين أحسّ أنه قد نام بينهما، وهو يفكر في هذه القصة التي جمعت بين والديه، وفي دير الزور، التي لم يرها إلّا وبيئةً مدمرّة في الصور، بعد أن كانت أرضًا غنّاء، فانتهى نومه إلى أحلامٍ صاخبة، وخيالات أخذته بدراجته الهوائية من بلاد وُلد فيها غريبًا، نحو حدود الدير، ينتظر السماح له بالعبور، لينشر الورد الأحمر على رصيف شارع النهر، ويعيد للفرات أجواء السكينة والموليّة!

جدل على هامش اللونجا

«قبلة»

- أشتاق إلى يدها.

- لمَ لا تذهب وتقبّلها؟

- ذهبت، لكني لم أتمكن من تقبيلها.

- لماذا؟

- وجدتُها مليئةً بالمجوهرات، لم يعد يبلغها فمي.

الآغا إرث

في أيامه القديمة، أيام الصبا، كانت تصيبه الدهشة كل صباح في لحظات استيقاظه الأولى، حين يلقى نفسه ملفوفًا بدثار ثقيل رغم أنه كان ينام مكشوفًا لكره خفي للأغطية.. لكن بعد تقّدم الزمان، واختلافٍ كثير، فُقدت الدهشة الصباحية واختفى التبسّم النادر، ولم يعد يلقى تلك اللُقى.

وأنهى شروده المتعلق بالدثار، وعاد لصحوة ابنه فرج، المصاب بالربو، فقام ليبحث عن رزقه، البعيد، الذي يحمد الله عليه إن أتى، ويدعو له بالإتيان إن أبى. خرج والشمس مازالت كَسلى تتمطى في خلف الحي، والظلال الصافية مازالت تنشر ذيولها ببطءٍ أمام البيوت الصغيرة، المخالفة للقانون، والمصيّرة على هذا النحو لتأوي خلف جدرانها الهاربين من تشتت الحياة، والمرميين على أرصفة ذلّها. يخرجون كلّهم في هذا الوقت، كل يوم، لينتشروا في نواح المدينة المختلفة جمعًا لكل ما تيسر لهم، ثم العودة به في الرواح إلى أفواه عائلاتهم المنتظِرة.

أبو فرج بدأ العمل بعد ساعتين من وصوله قلب المدينة، فقد حظي بعد البحث الطويل على عملٍ وقتيٍّ، ينتهي بانتهائه من إيصال حمولة من طوب البناء الاسمنتي إلى الطابق الثالث من أحد الأبنية، التي مازالت تُبنى. وقد انتهى منها أوان العصر، عند احمرار الشمس وانحدارها، فناوله صاحب العمل أجرته، رآها ظهره المتصلب قليلة، سكت.

توجّه من فوره إلى الصيدلية من أجل بخاخ الربو، مهدّئ نوبات سعال فرج، الذي أصابه هذا المرض نتيجة اعتراف رئتاه الغضّتان بأنهما أضعف من أن تتحملا رطوبة مسكنهم شاحب الزوايا، كجميع رئات أطفال ذاك الحي. وبعد أن اشترى البخاخ واستراح من هذا الهم، وجد في يده قليلًا من النقود، تحيّرَ في صرفها، أول ما خطر له أن يكافئ معدته بسندويشة فلافل، من مطعم قريب، فرائحة القلي المنتشرة في المكان تزيد من اضطراب الأحشاء وإلحاح الجوع، ثم خطر له أن يكافئ قدميه ويستقل بالنقود أحد الباصات الموصلة إلى أطراف المدينة وبدايات حيّهم العشوائي. نقلُ طوب البناء مع الجوع يهلك العزم ويوهن الأطراف. وبينما كانت الخواطر تتناوب في باله، وفي كفه تخشخش النقود الباقية، مرّت بجانبه عربة صغيرة محمّلة بالفواكه، هو أكثر العارفين بأن فرج يحب البرتقال، وسيفرح إن آتى له به، ومن دون تردد، أعطى

صاحب العربة ما كان في كفه من نقود، وطلب منه أن يضع له بما تساويه برتقالًا، من دون أن يسأل عن ثمنه، أو ثمن بقية أنواع الفواكه.

رغم ضنك الحال وتعب الجسد كان سعيدًا وقتها، فمن جهة لقد أحضر البخاخ لفرج بعد مضي كثير من الأيام الحافلة بالمحاولات الفاشلة لتدبير ثمنه، ومن جهة أخرى لأنه اشترى له تلك الحبّات القليلة من فاكهته المحببة، التي من المؤكد أن مزاجه سيتحسن عند تذوقها، فهو دائمًا يشتهيها.

كان يمشي على رصيف أحد الشوارع العريضة، عائدًا بوجهه الباهت إلى العائلة المترقبة، وعلى الجانب محال كثيرة متنوعة. تمرّد في داخله اشتهاء قديم، يلّح عليه كطفل صغير يبكي من أجل حلوى. دخل المحل الأول، لم يفكر كثيرًا واشترى بدلة أنيقة كتلك التي يلبسها أصحاب الشأن، ثم دخل الثاني وانتعل حذاءً مناسبة للبدلة نال إعجاب كل من شاهده في المحل. ازدادت ثقته في نفسه أكثر، دخل الثالث والرابع والخامس، ودلل نفسه كثيرًا، لكن لا عجب أنه اعتاد هذا الخيال، الملوّن، الذي يمحو كل الرغبات، ويخلع عنه تعب الأيام ويكسيه بدلًا عنها حياة هانئة، لا عجب، ولأنه كان يهرب إليه في كل الأوقات الصعبة، وجد نفسه يعيش فيه أكثر من أي واقع آخر، ويتمادى في فلسفته، فمرةً، في سهرة فقيرة مع أم فرج، تحت ضوء الغرفة الخافت الذي بالكاد يلقي

نفسه على أخاديد وجهيهما، كانا يتبادلان السيَر والأحاديث، ومن غير قصد أتى أبو فرج على ذكر الذهب، الأصفر اللماع المُشتهى، فأبدت أم فرج حسرتها بزفرة طويلة وهزة رأس، ولكي يخفف عنها قال:

– لو تخيلنا أنك تملكين مقدارًا مرضيًا من الذهب، ماذا ستفعلين به؟

– سأبيعه لنغيّر حالنا.

– سيصبح لديك نقود وليس ذهب، والنقود لا تلبث أن تتبدد.

– دعني أتخيل إذن، أنا أحب الذهب كثيرًا، لم أرتده في حياتي، لكن لو كان عندي لكنت قد خبأته في مكان آمن، ولن أظهره إلّا في المناسبات، نعم سأخبأه بالتأكيد، فكل الناس على ما أظن يخبئونه.

– مناسباتنا معدومة، يعني سيبقى مخبأ، ولن تفعلي به شيء.

– ماذا تقصد؟

– تخيلي الآن أنك تملكين صندوق من الذهب المخبأ، الذي لن تفعلي به شيء.

ضحكت أم فرج بفتور، وتبعها هو، حتى التقت أعينهما التعبة ببعضها، فانتهى الضحك المشوب بالحسرة، بزفرة وهزة رأس، كأي سهرة فقيرة كانا يسهرانها.

□ □ □

تجمد أبو فرج في مكانه فجأة، بعد أن وصل لرصيف آخر ينتهي إلى ساحة مدورة، رأى ظرف نظيف حديث الارتماء على الرصيف، تلفت يمينًا ويسارًا، وصاح بالشاب الأقرب منه، لم يجبه، وشعر بأن الشاب قد أسرع في خطاه حتى وصل إلى التفافة أحد الأزقة وانعطف منها، صدَّ عن الشاب وتناول الظرف وفتحه. قرأ ما كتب على أحد وجهي الورقة التي فيه:

"السلام على حامل هذه الورقة.. أنا "الآغا"، وأظن إن من سيقرأ هذه الرسالة سيعرفني، وسيعرف ما أملكه من قصور وأموال وشركات منتشرة في كل البلاد. لقد فتح الله لي أبواب رزقه الواسعة، بعد أن تعبت وشقيت وعشت أشد الفقر في طفولتي، وفي شبابي، ولهذا، لقد وزعت بشكل عشوائي عشرات الظروف في أنحاء المدينة، التي تربّيت وتعبت واغتنيت فيها، ووعدت بأن من

يجد أحدها ويأتيني به، سأعطيه مما أعطاني الرزاق، وأكرمه حتى تتيسر حاله، عنواني مدون على الوجه الآخر، أحضر الظرف معك وتعال، أنا في الانتظار".

أعاد القراءة مرّات، كثيرات، وفي كل مرة كان يزيد من التمعّن فيها ومن الاقتراب من مصطبة صغيرة ترتفع بجانب مداخل أحد الأبنية، إلى أن وصل إليها وجلس، كان يقرأ ويتلفت من حوله متوجّسًا، ما زال متأرجح التصديق، مأخوذًا بكل حواسه. لم يسمع بالآغا قط.

– ومن أنا لأسمع بالآغا أو بغيره.

قالها وقد رفع رأسه عن الورقة، وعلى وجهه ابتسامة هادئة شقّت نفسها بشيء من الصعوبة في وجهٍ قد نسيها، أحسَّ بأنه مولود جديد يعوزه البدء في التعرف على هذا العالم الكبير. التقط سمعه ضجيج سيارات مكتظة في بداية الشارع فراق له، وأخذ يتطلع على طرف الساحة الظاهر، فدغدغ قلبه رذاذ الماء المتطاير من النافورة الشامخة فيها، التي لم ينتبه إليها من قبل.

– حان وقت الانتباه، محال أن تستمر الحياة في مسيرها العرج هذا، شكرًا يا الله.

عاد إلى الورقة وقد صار يتهجّى الكلمات بتأن أكثر، لينتشي بها على مهل، ثم أدارها على وجهها الآخر، لكي يقرأ العنوان ويمضي إليه، صافح بلطف أول كلمة مكتوبة، فاختفت، واختفت الورقة، وكأن ما حدث لم يكن سوى نظرة عجلى اختلسها من رؤية، فتيقظَّ، ورأى ما اختفى بين أصابع شاب يفرُّ من أمامه، انتفض ليمسكه، وفي منتصف خطوته الأولى سقط الكيسان، المتكوّمان في حضنه النحيل، فخطى خطوة ثانية متجاهلًا لهما، لكنه عاد، فهذا علاج فرج وهذه فاكهته، وقد دفع ثمنهما غاليًا، جوعًا وتعبًا.

كان مع الشاب دراجة هوائية، ركض بها بعد خطفه للورقة حتى نزل من الرصيف وامتطاها برشاقة، ثم هرب فيها متعرجًا بين السيارات المكتظّة، وعابرًا بين التي كانت تدور حول الساحة المدورة.

لحقه أبو فرج بنظره، بعد أن لملم حبات البرتقال سريعة التبعثر، وقدماه تجرانه من غير تنبّه لكل ما حوله، ارتبكت السيارات الجارية، وصار السائقون يلوّحون بأيديهم من شبابيكها ويطلقون الزمامير، لكنه كان هائمًا بتركيزه بعيدًا، محلّقًا ببصره فوقهم، وآخر ما لمحه كان دخول اللص بدراجته إلى حديقةٍ قريبةٍ من الساحة، فحثَّ قدميه على الإسراع، وتوجه نحوها بكل ما بقي فيه من استطاعة كي لا يكون ناقضًا للعهد، فمنذ أن قرأ الرسالة وأدرك ما فيها بدأ

بإبرام العهود الخفية، التي يبرمها أي معدم حين يتخيل نفسه غنيًا، قال إن أول ما سيفعله بنقود الآغا هو أخذ فرج إلى أكبر المستشفيات وعرضه على أمهر الدكاترة فيها، لعلاجه من مرضه الذي يمنعه من التمتع بطفولته، ثم سيشتري له ولأمه، أم فرج، كل ما حرما منه من طعام ولباس، وسيتجاوز معهما واجهات المحال ليدخلوها كما كل الناس، قال إنه سينقلهما إلى بيت تطلّ عليه الشمس الدافئة صباحًا، ويدخله الهواء العليل طوال ساعات اليوم، وإنه سيفاجئ أم فرج بأساور ذهبية، لترتديها كما لم تفعل من قبل، عهده أنه سيجعلهما سعيدين، ليسعد.

عندما اقترب من الحديقة اندفع الشاب من بابها خارجًا على دراجته، وتحرك مسرعًا على رصيف الحديقة الطويل، ركض أبو فرج محاولًا أن يجاريه بسرعته، وهو ينوء بالتعب، أحس في الأثناء أن أذني الكيس ترتخيان من جرّاء الركض، فسنده على صدره بكلتا يديه كأنه يحضن واقعًا عزيزًا، لكيلا يخسر كل شيء، كان جريه أبطأ بكثير من الدراجة فتخلف عنها، ووصل الشاب إلى نهاية الرصيف وانعطف متابعًا على الرصيف التالي، تابع أبو فرج الركض وهو يهمس في نفسه:

– ها هو المستقبل أمامك، حتى لو متّ بعدها فيكفي أن أسرتك ستعيش برخاء من بعدك، أركض إلى رزقك الذي ساقه الله إليك في غفلة، وفي غفلة خُطف منك، نوبات السعال المهتاج بحاجة لركضك، وأمواج المصائب المتدفقة بحاجة لركضك، اركض ولا تأبه لوجع قلبك وضيق نفسك، المال الذي سيأتيك يشفي كل العلل.. اركض.

أدرك الرصيف الثاني الذي أدركه الشاب من قبل، والتفَّ منه، رأى مؤخرة الدراجة تدخل من باب الحديقة الخلفي فلحقها ودخل. كانت الحديقة شبه خالية من الجالسين، حيث إنها تفصل بين شارعين عريضين يلتقيان عند الساحة، يعبر من خلالها الناس اختصارًا للمسافة، وقليل منهم من يجلس. ولم يزل يتقدم بحذر إلى داخل الحديقة، وعيناه زائغتان تتلفتان بوجل لرصد الشاب، حتى خرج من خلف الأشجار رجالٌ، خرج واحد واثنان وثلاثة، وكلهم يصفقون، ثم توقف عن العد، عندما تقدم أحدهم نحوه، كان المتقدم يلبس بدلة أنيقة كالتي تخيل لبسها، وحذاء جلدي لماع كالذي تخيل انتعاله، زاد من لمعانه توهج قادم من أضواء كبيرة كانت مثبتة على نتوءات بعض الأشجار، التي تزامن انبثاقها مع خروج الرجال.

أبو فرج كان في حالة نفسية مختلّة، كان خائفًا وفرحًا، متأملًا ومكذبًا، فكل شيء كان مبهم. استقبل الرجل الأنيق بابتسامة منهكة، ممزوجة بقلق مغموم، أهذا هو الآغا؟

أربد وجهه فجأة واضطرب لشيء مريب حدث في صدره، ولم يعد يفهم ما صار يتفوه به الرجل بعد ذلك، اقترب منه الباقون أكثر، وجعل يدور حول نفسه بحذائه المتهرئ من كرّ السنين، فيدور معه وعيه من غير ثبوت، والنفس الداخل إلى صدره كان ضعيف متقطّع، والخارج منفعل سريع، والبرد يزداد في نخرِ عظامه وسريانه في ظهره المتصلّب، حتى وصل إلى قلبه الضعيف. ثم تسارع أكثر في دورانه كأنه لم يعد يسيطر على أطرافه، وكل ما حوله صار متشابهًا ومسرعًا، وجوه الرجال صارت واحدة، وأجسادهم واحدة، وصوت الرجل الأنيق صار يخفت بين وجيب قلبه الذي بلغ مداه، حتى انتهى الدوران وسقط على الأرض، من دون أي تجنب لوجع السقوط. تبعه الكيس الذي جمع فيه البرتقال وبخاخ الربو وسقط إلى جانبه، فتدحرجت منه برتقالة واقتربت من وجهه مواسية، وتسربت رائحتها الطيبة إلى أنفه، خدشت ذاكرته، ومن بين الخدوش أبلج طيف طفولته، حينما كان يحب البرتقال، وكان لا يتذوق منه سوى رائحته المنبعثة من العربات الجوّالة، ظلّ يحبه بعدما كبر، لكنه صار

يتذوقه من ابتسامة فرج التي تقطعها نوبات الربو، في كل مرة يراه يأكل البرتقال.. ابنه الذي أسماه على اسمه، فهو فرج أبو فرج، تمنّت عائلته الفقيرة، أيضًا، أن يكون الفرج قادمًا معه فأسمته هذا الاسم، لكن شيئًا لم يأتِ، ولم يطرق الفرج لهم بابًا، فسّمى استكمالًا للأمنية القديمة ابنه على اسمه، ولم يأت فرج الصغير إلا بالربو.

كان يفتح عينيه مرة فيرى الرجال متحلقين حوله. هل هذا حلم؟ والغيوم تدور بينهم كدوامة تحاول سحبه إلى وسطها الهائج، وأطراف الأشجار غير الكثيفة التي تصدّع محيط الدوامة، كانت تنقله إلى أطراف حياته المتقرحة، فيرى عائلته الصغيرة في البيت الفقير ذي الغرفة الواحدة، الشاحبة من المرض والجوع، ثم يسمع صوت سعال فرج الناشف، في أقصى زواياها المعتمة، ويسمع نشيج زوجته وهي تخيط فتوق الملابس وجيوبها المتآكلة من البحث، وتدعو الله مبتهلة. ثم يزداد طغيان الإغلاق على عينيه، فيقاوم ويفتحهما باندهاش، فيرى أبيه المقعد، المرحوم، الذي هوى من أحد الطوابق العالية في أثناء عمله فيها، في حادثة غريبة أصيب على إثرها بشلل أقعده لبقية حياته، مما اضطره –لإعالة أسرته وأبيه المقعد– أن يعمل منذ صغره، منذ أن كانت عدد سنينه القليلة تتساوى مع عدد سنين الذين كانوا يرتادون المدارس وحدائق

الالعاب. كان يمشي معهم عند خروجه صباحًا، ليلامس عالمهم الغريب، لكن وجهته كانت مختلفة، وثيابه مختلفة. فلا يلامس سوى رائحتهم العطرة.. تذكّر رائحتهم، ورائحة أبيه.

جاهد نفسه على الاستيقاظ من هذه السهوات، والعودات، فالتقط بخاخ الربو والبرتقالة ومدها لأحد الرجال، وقال بلهجةِ مودّعٍ:

- أعطها لفرج.. أبي فرج.

ثم سحبته الدوامة بعنف من قلبه المتباطئ، لم يعد يقوى على الصمود، ظلّت تتماوج به بين الخيالات المؤلمة وموجات الذهن المتشابكة، إلى أن أوصلته من بين كل هذه الفوضى إلى أمّه، المرحومة، فسكن كل شيء، واختفى كل ما يُرى إلّاها، كانت جميلةً، تجلس وحيدة فوق غيمة نقية، في المُنتهى، فاقترب منها ومتلعثمًا من الشده قال:

- هذا أنا، فرج.

- تعال.

ثم اقترب منها أكثر وجلس:

- أمّي، أشعر بالبرد.

فأجابته مبتسمة:

- الفقر باردٌ يا ولدي.

- في صغري لم يكن، وكنتُ فقيرًا وقتها.

- كنتُ أغطيك بدثاري بعد أن تنام كل يوم، فتدفى.

- أمّي.

أجابته بالابتسامة ذاتها:

- نعم

- غطّني.

ثم تمدد لصقها مثلما كان يتمدد، ضامًا يديه ورجليه إلى صدره، فأرخت فوقه دثارها الأبيض، الناصع كوجهها، فشعر بدفء مريح، سرى في كل أعماقه.

قالت وهي تمرر يدها على شعره:

- أما تعبت؟

- كثيرًا.

- من أي شيء؟

- خانتني قواي يا أمي، فعندما وجدت الفرج انهارت.

- أي فرج؟

- لقد أمسكت الرسالة بيدي، وحولي الآن الآغا ورجاله.

- كل هذا وهم، ركضت خلفه كما ركض والدك في الهواء من قبل. لا آغا ولا رسالة ولا رذاذ للنافورة، هذا وهم الفقراء.

- تعبت، تعبت.

ثم هزّت بلطف رأسها، وأغلقت بيديها الناعمتين جفنيه، بمسحةٍ باردة، وهمست في أذنه قائلة:

- إذن نم.

فاستكان لها ونام.. نومًا عميقًا.

الجرأة الأولى

في لحظةٍ مسائية، وقت الشتاء، تحت الثلج الهادئ المستمر بالتساقط منذ يومين.. كنّا نمشي، وأيدينا تضمُّ بعضها بدفءٍ لذيذ، وصلنا حينها إلى رصيفٍ صاعدٍ –في طريقنا– مكتسيًا بالبياض، فبدأنا الارتقاء بحذر، بتوقّع الانزلاق في أي حين. شددتُ على يدها وأنا أمامها أُعينها على الصعود البطيء، بينما أطلق جوّالي رنينه من بين الأردية الكثيرة، وأخذت أبحث عنه بارتباك.

الرصيفُ كان يخفي تحت بياضه الناصع طبقة صقيع ملساء، فاجأتنا، وانزلقت هي خلفي، وقبضت بيدها الثانية يدي الثانية، تلافيًا للمحتوم، فطار الجوال منّي بعد أن وجدته، وتداخلت الاتجاهات والخطوات، وحيث إننا في ترابطٍ تام، انزلقنا معًا على صفائح الرصيف الباردة، كطفلين يلهيان، إلى أن استقرّينا عند بدايته المنخفضة متكوّمَين.

نظرنا إلى بعضنا وأطرافنا متشابكة، ورأسانا متقابلان، فأخذَنا ضحك مجنون، تدفّق صداه في مدى الطريق الشاحب، فتلوّن، وتحلّق حولنا المارّون فيه، ورافقوا بشهقاتهم رنين الجوال الذي ما زال يصدح من داخل كومة ثلج قريبة، فارتفع الضجيج والصخب، وسيطرت هيستيريا مجهولة على الجميع،

رأينا الأصابع تتجه نحونا، وعلى حين ما كانت تهبط عليها لآلئ السماء المترنحة، كانت تنثرها صفقات الضحك الشديدة.. فانفجرتُ بها:

- أخبرتكِ أنّي لا أحبُّ الثلج.

ردّت بصوت يحمل معه سعادة، وجرأة:

- ستحبّه.

- مستحيل.

فغامت الأنحاء من حولي، واشتعلت الحرائق في البواطن، وتراقصت ألسنة النار مع الألسنة، وسرى في الأعماق طعمٌ غريبٌ، حلوٌ، ناعمٌ كبداية الحلم، قارصٌ، لاذعٌ كنهاية القرفة، فصار المتحلقون حولنا طيورًا، وضحكاتهم صارت هديلًا، ثم سافرنا جميعًا عبر أمواج الرنين المدفون، إلى آفاقٍ مضيئة، فيها أوتارٌ تعزف لذّة، وغيوم تأكل غيوم، وبحرٌ عميقٌ تتلاطم أمواجه الخضراء مع حسِّي الدفين. ثم ابتعد وجهها عني، فتفتحت عيناي وعدتُ إليّ، قالت وقد صار صوتها أشهى:

- والآن، ما رأيك بالثلج؟

جدل على هامش اللونجا

«فراغ مثير»

- انظر إلى ذلك الفراغ.

- نظرت.

- أترى تلك الأنثى الجميلة؟

- بالطبع أراها، أراها جيدًا.

- شعرها ليل ساخن.

- خصرها يشبه اللسان.

- ساقاها ملعقتان تغرفان العسل.

- أحب العسل.

- سأدعوها إلى سريري.

- سأدعوها أنا.

- لكني أنا من رأيتها أولًا.

- سأقتلع عينيك حتى لا تراها مجددًا.

- اخرج من هنا، إنها لي.

- لن تأتي معك، إنك تشبه الجرذ النتن.

- سأحطم رأسك تحت حذائي.

يتضارب الرجلان. يتحطم رأساهما. الفراغ في مكانه ينتظر من سيدعوه إلى سريره.

وحمى

عقب مرور عدة أيام من الحرمان، ينسدل الشحوب بشكل واضح على وجهين بارزي العظام شأنهما شأن بدنين محدوبي القامة، ويرتدي الزوجان ملابس قديمة تحمل معها شذى فرح مال إليهما في وقت ماض، ويغلقان خلفهما باب المنزل بهدوء شديد حرصًا على عدم إيقاظ هموم غافية في أماكن مختلفة من المنزل، يتوجهان نحو الحفل، ولا تزال السمكة تعيش في حوض ماء صغير على سطحه فتات من طعام يُقسم عادة على ثلاث، ويكون الطريق أمامهم رغيف خبز طري يخرج توًا من التنور، والغيوم قطع من جبن شهي، حتى يصلا إلى مكان قطع التذاكر وينتزع الزوج من جيبه نقود مصكوكة من جوع، ويأخذ بدلًا عنها بطاقتان يحملهما بين كفيه طفلًا جاء بعد عقم قاسي مضني.

– وجوههم كلها صفراء، هل وجهي كذلك؟

تقول الزوجة بعد جلوسها على مقعد ملفوف بمخمل أحمر غامق، ثم تضيف بحزن:

– يبدو أننا لسنا الوحيدين الجائعين.

وتنتشر الموسيقى في المكان هواء يزور كوكب منسي، وتدور السمكة بجوار حواف الحوض فتحيا على سطح الماء موجات صغيرة تُنسي كل شيء في الدنيا إلّاها، وينظر الزوج إلى طفلة الوجه بعد صعود المخمل إليه:

- لم أر الدم يجري في وجهك هكذا من قبل.

تدخل بين فراغات أصابعه أصابع ساخنة، تضغط بقوة مدخرة في عميق الصدر، ويكون الدم غبطة تدغدغ عروق جافة، ترنو إلى عينيه الذابلتين، تقول وهي تتلمس بطنها:

- الآن قد شبعنا.

شموع الخضر

الابن يقول:

– اليوم سنبحر.

الأم تبقى ساكتة على الجانب الآخر من المكالمة، ويقول:

– سأتصل مرة أخرى وأنا على الشاطئ الآخر، ادعي لي.

الأم تنزل واجمة عند المغرب ملفوفة بعباءة سوداء، تقصد ضفة النهر. الابن ينزل مع جموع الهاربين نحو العالم الآخر، بين تعرجات الدرب للوصول إلى شاطئ البحر. تدعو في صدرها. الجموع يدعون في صدورهم، يرجون أن تختفي الأمواج اليوم من سطح الماء، ويصير أرضًا هيّنة العبور.

تصل إلى الضفة، تألف النهر وحيدًا هادئًا، يظهر من الأرض ليعانق غيبوبة شفق أحمر متدرج، تُخرج من تحت عباءتها قطعة من خشب، وتُخرج شمعة، وعلبة كبريت.

يصل إلى شاطئ البحر. الصوت يرتفع. الأمواج تحاور بعضها بهدير خفيف. الأيادي تمسك الأيادي بشدة. الأرض تصير رطبة هشة عند حدِّ الدنيا. الأقدام تهبط، ترسم خطوات عميقة الأثر. الرجل يصيح عليهم.

يتوجهون نحو القارب الأسود.

الأم تبلل قطعة الخشب بدموع الشمعة السائلة حول الفتيل المتّقد. أهداب الابن تتبلل بدموعه. الرجل يدفع القارب بيدين باردتين. ينزلق المطاط على البحر. الأم تنحني على ضفة النهر ببدن يرتجف، تضع قطعة الخشب والشمعة المنتصبة عليها فوق سطح الماء بحذر، تدعها تطوف بين انثناءات السطح. الأمواج تأخذ القارب إلى بعيد. الشاطئ يختفي وتختفي الأضواء. ضوء الشمعة يعكس على النهر دائرة من نور، تسبح في مرآة الفضاء بخشوع. الأم تجلس على ركبتين خائفتين، تراقب شمعتها وتنذر. الشمعة تبتعد. القارب يبتعد. الابن يرتعش. الأم تتوسل. بكفين مفتوحتين صوب السماء، تتوسل. القارب يترنح. الشمعة تميل. الشفق يتلاشى. الظلام يجتاح. القمر يصحو من كهفه فزعًا. الشمعة تسقط. الشمعة تنطفئ، تنطفئ. الأم تنتفض. الأم تتصل، لا تُبحر. الأمواج تصخب. الأم تصرخ، تقول ياقلبي لا تُبحر.

الابن يقول:

لا يقول الابن، الشمعة تغرق، تغرق.

الشاطئ الآخر يخلو من الأقدام. العباءة تطير مع الهواء، مع الدعاء. الخِضر يبقى غافيًا بين الزرع. الزرع يذوي. القمر يذوب. والقاع يمتلئ بالشموع الخامدة!

جدل على هامش اللونجا

«عازف اللونجا»

– أتعرف ما هي قصة عازف اللونجا هذا؟

– لا أعرف.

– قيل إنه في أحد الآونة فقدت المدينة كل عازفيها، وتجنبًا للفقد، صنع هذا المكان وظلّ متخفيًا فيه بين الثمالة والجنون.

– عجيب، كيف لم يجدوه حتى الآن، ألم يسمعوا الموسيقى وهي تصدر عن المكان؟

– الموسيقى لا تصدر عن هذا المكان أبدًا.

ينظر إلى الجدران، ويقول:

– لكن الجدران غير مغلفة بالفلين.

يضرب العازف الأوتار ضربة تخلق نغمة عالية. يلتفتان إليه. يلاحظان بأن العود مصنوع بشكل كامل.. من فلين.

الفهرس

الإهداء ٥
مدخل ٦
تاريخ الهزهزة ٧
قيامة وثن ٢٠
جدل على هامش اللونجا «انتصارات» ٢٤
تركواز ٢٥
لهوجة ٣١
جدل على هامش اللونجا «عربدة» ٣٥
المأوى الملعون ٣٦
كولومبوس على بعير ٤٦
جدل على هامش اللونجا «ملابسنا الداخلية» ٥٤
صبريان ٥٥
النذل ٦٨
جدل على هامش اللونجا «متى؟» ٧٣
مشروب الطاعة ٧٤
جرعة سماءٍ صافية ٨٤
جدل على هامش اللونجا «يقولون» ٨٩
نهود الأحلام ٩٠
أسطوانة من العالم الثالث ١٠٥
جدل على هامش اللونجا «انتظار السكرة» ١٢٨
سيليكون ١٣٠
فانتازيا ١٣٧

جدل على هامش اللونجا «دوامة» ١٥٤
خاتم من دخان ١٥٦
المولية ١٧٠
جدل على هامش اللونجا «قبلة» ١٨٢
الآغا إرث ١٨٣
الجرأة الأولى ١٩٧
جدل على هامش اللونجا «فراغ مثير» ١٩٩
وحمى ٢٠١
شموع الخضر ٢٠٣
جدل على هامش اللونجا «عازف اللونجا» ٢٠٥
الفهرس ٢٠٦